
الرسالة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

تصدر كل أسبوعين مؤقتاً

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٩٩٢

بدل الاشتراك

٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد الثالث — القاهرة فى يوم الأربعاء ٢٠ شوال ١٣٥١ — ١٥ فبراير ١٩٣٣ — السنة الأولى

بين السوامر والصحف

الرسالة وقراؤها :

خرجت الرسالة الى قرائها على الحال التى سمحت بها صعوبة البدء وأثالة العمل، فاستقبلوها استقبالا ماوقع فى الظن ولا تعلق به الأمل.

ولا يزال البريد يحمل الينا كل يوم رسائل الاصدقاء والقراء تفيض بحسن الظن، وجمال العطف، وكرم التعضيد، ومحض النصيحة. ومن هذه الرسائل الكريمة ما يستحق النشر لدقة ملاحظته، أو رقة أدبه، أو سداد رأيه: ولكن دورانه على الثناء والتقريظ يجعل فى نشره اتهاما لخلق الرسالة.

وقلما تجد انبل عاطفة من رجل يعنى بعملك لذاته، ثم يحمل نفسه ووقته جهد الكتابة اليك صفحات فى تأييده وقدره، ثم لا يريد بعد ذلك ان يبوح لك باسمه !!

فالى هؤلاء تتقدم الرسالة بموفور الشكر على مايرجون لها من خير، وما ينيطون بها من ثقة، وتسأل الله أن يؤكد لها أسباب التوفيق حتى تتحقق الظنون وتصدق الأمانى.

آراء القراء :

من الكرام الكاتبين من يطلب الى الرسالة المزيد فى التعمق والافاضة، ومن يرغب فى شىء من الفكاهة والبساطة، ورأى الأولين ان تقصر على أدب الخاصة، ورأى الآخرين أن تستدرج ذوق العامة، والرسالة ترجو ان توفق بين الرأيين، بأن تتخذ طريقها بين بين، ثم تنشر الحين بعد الحين اعدادا خاصة بما تجمع لديها من البحوث المستفيضة والدراسات العميقة والقصص الضافية.

أقاويل طرآنية :

للاستاذ محمد بك مسعود أثر جميل على الثقافة العامة منذ طويل.

فهرس العدد

يشترك فى تحرير المجلة

الدكتور طه حسين

راعينا لجنة التأليف والترجمة والنشر

طبعت بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدابغ بالقاهرة

وعهد القراء بأسلوبه سائغ المورد مأنوس اللفظ فيما نشر من صحف وألف من كتب . ولكنه منذ توفر على محاكاة الاستاذ وحيد فى تحقيق اللغة ، ومباراة شيخ العروبة فى تمحيص التاريخ ، بدت على أسلوبه الصحيح أعراض الغرابة التى تلازم اللغويين ، والاعتداد الذى يساور العلماء .

ولا نحب أن نعرض لهذه الروح المنبثة فى المناظرة (الطرطوشية) وأمثالها . فانها بين عالمين جليلين لا يجهلان أن المن يفسد العلم . وأن شهوة التغلب تظلم الحقيقة ، أنما نرغب الى الاستاذ مسعود أن يوافقنا على أن حياة اللغة فى أحياء اللفظ الذى لا نظير له فى مألوف الكلام ، أما استبدال الصيغة مهجورة بصيغة مشهورة كاستعمال اشاغيل بدل شواغل ، وطرآنية بدل طارئة ، وصُروحة مكان صراحة ، وقدورة فى موضع قدرة ، ومشيوخاء بدلا من شيوخ ، فاحياء شر من الموت ، وبيان اغمض من العى !!

التجديد والتقليد :

صديقنا الهراوى على تجديده ينكر التجديد . ويزعم ان كلمتى قديم وجديد ينقصهما التحديد ، وكنت احب أن اكون بجانبه حين قرأ فى الاهرام (نفثات شاعر) لصديقه وزميله الاستاذ نسيم ، اذن لأخذت اعترافه بأن فى الشعر جديداً وقديما ، وان الحطيئة قد يسمى عبد المطلب وقد يسمى نسيما : والا فالى من كان ينسب هذا الشعر لو لم ينشر تحته اسم صاحبه ؟

وما زعزعتنى الحادثات كشامخ ... رسا بهضاب فوقه واكام
وللدهر مرنان رددت سهامها ... وقابلتها من جعبتى بسهام
فقدت صديقى اللذين تبوآ ... من الشعر أعلى ذروة وسنام
واصبحت فى جيل نبا بى ودهم ... وساء ثوائى بينهم ومقامى
وليس لهم غيرى اذا جد جدهم ... وخطب الرزايا حولهم مترام
ولو شئت كانت لى زعامة شعرهم ... وكنت لمن يأتم خير امام
شوارد تزرى بالحطيئة هاجيا ... وتعيى جريرا فى مديح هشام
له الحمد ثم الحمد ماذر شارق ... وماذر غيم بارق برهام
وما ذرعت بطحاء مكة اينق ... تحن بارزام لها وبغام
وماشدت الاكوار فوق متونها ... وقيدت بشزر محصد وزمام

وبعد فان الشاعر الذى يجعل الشعر جبلا وجملا ويتخيل الهضاب والآكام والجعاب والسهام والارزام والبغام . ويذكر بطحاء مكة واكوار النوق وهو فى رياض الجزيرة وعلى ضفاف النيل ، ويزعم انه موئل قومه وليس من الزعامة فى كثير ولا قليل : لا يسوغ فى العدل الأدبى أن يقيد على حساب هذا الجيل : إن تعدد الاساليب فى العصر الواحد أثر طبيعى لأختلاف العوامل المؤثرة فى كل شاعر : ولكن الاسلوب الذى لا ينسجم مع أمور الحياة : ولا يتصل بشعور الاحياء . لا يدخل فى هذه الاساليب . ولا يدل وجوده على شاعر ولا أديب

الشبان والشيب :

كتب الاستاذ ابراهيم المصرى فصلا قيما فى البلاغ عن أدباء الشباب وأدباء الجيل الماضى ، نعى فيه على هؤلاء استئثارهم بالمجد واحتكارهم للشهرة وانكارهم فى سبيل ذلك جهود الشباب . وخشى ان يكون ذلك الاستئثار المضر بالأدب الشاب تخوفا من انهزام أدب انتشر لخلو الميدان ، واشتهر بطول الاعلان ، فلا يجلد بطبعه للتنافس والنقد . وقال ان شيوخ الكتاب فى الغرب لاخلاصهم لرسالتهم الادبية وثقتهم بملكاتهم الفنية . يسددون خطى النبوغ الناشىء . ويرفعون ذكر الشباب الموهوب ، ويمهدون السبيل لخلافة الجيل الحاضر ، ثم يهيب بالعزائم الفتية ان تعلن الحرب المشروعة على هؤلاء القادة الذين كسبوا هذه العناوين من غير جهد ، ونالوا هذه النياشين من غير حرب .

والرسالة تقر الاستاذ المصرى على رايه وترى من الجناية على الأدب ان تطغى أثرة الكهول على هذا الطموح ، وان تكون الهيمنة على الصحافة وسيلة الى كبت هذا الروح . وتعلن انها بطبيعتها ومبدئها ستكون ملتقى الوئام بين الجيلين . وسفير السلام بين الفريقين

العراق ومجمع اللغة العربية :

ينام صديقانا الحصرى والزهاوى ملء الجفون فى قصريهما المتقابلين على طريق الاعظمية ولا يعلمان انهما اقضا مضجع وزارة المعارف المصرية ليلة : فقد روت الصحف المحلية أن الاستاذين الكبيرين جميل صدقى الزهاوى وساطع بك الحصرى رفضا ترشيحهما لعضوية المراسلة للمجمع وجرى فى خلال ذلك ذكر لجنة التأليف والترجمة ، فظنت السياسة أن هذا الترشيح كان اقتراحا من لجنة التأليف والترجمة التابعة للمجمع ، واذن يكون هذا الرفض تسفيها للوزارة من جهة ، ودليلا على اعراض البلاد العربية عن المجمع من جهة أخرى

فأخذ الوزارة من مقال السياسة المقيم المقعد ، واصدرت بلاغا رسميا تكذب فيه أن يكون منها عرض ، ومن الاديبين رفض . ووجه الوفاق بين المعارف والسياسة أن لجنة التأليف والترجمة هذه ليست تابعة للمعارف المصرية وانما هى لجنة من لجان المعارف العراقية ، تنظر فى تأليف الكتب العربية ونقل المؤلفات الغربية . أما كيف دخل فى اختصاصها ترشيح الاعضاء ، فذلك أمر تسأل عنه وزارة (الزوراء)

مسارح الأذهان

الأدب والعلم

للأستاذ أحمد أمين

الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مرت كلمة الأدب والعلم في اللغة العربية في أدوار عدة . استعملوا كلمة الأدب أحياناً فيما يرقى الخلق ويهذب النفس واستعملوها أحيانا بمعنى أوسع حتى عدوا أفحش شعر لجرير والفرزدق والاخطل أدبا ، وعدوا خمريات أبي نواس وغلمانياته أدباً كما يعد الفنان بعض الصور فنا وان كانت صورة لوضع مستهجن أو فعل فاضح ، وكذلك الشأن في كلمة العلم ، كانوا أحيانا لا يستعملونها إلا في العلم الديني ، ثم توسعوا في معناها حتى شمل كل ماينتجه العقل والفن .

وفي العصور الحديثة فرقوا بين الأدب والعلم ورسموا لكل دائرة ، ومن ثم كانت الصحيفة أو المجلة أحياناً أدبية ، وأحياناً علمية ، وأحياناً أدبية علمية ، وأصبح من المضحك أن نقول علم الأدب لأن العلم غير الأدب ، وأصبح لدينا من يسمى «أديباً» فلا يكون عالما ، وعالما فلا يكون أديبا ، وقد يكون أديبا عالما ولكن كلمة «عالم» الأزهرية انما اشتقت من العلم بالمعنى الواسع الذي يشمل الادب والعلم معا .

وبعد فما الفرق بين العلم والادب ، وما الذي يجعل الادب أدباً والعلم علما ؟

الحق أن كلمة الادب والعلم من الألفاظ الغامضة التي نفهمها نوعا من الفهم فاذا أردنا تحديدها حرنا في أمرها . كالجمال والعدل والخيال والحرية والعبودية ، واذا سألنا ــ حتى الخاصة ــ في معناها أجاب كل حسب ميوله وأغراضه وحسب طبيعة فهمه للكلمة .

هناك أشياء لا نشك في أنها علم أو أدب ، فلو سئلت عن نظريات الهندسة وقانون اللوغارتمات وقوانين الحساب والطبيعة والكيمياء فذلك علم بالبداهة ، واذا سئلت عن قصائد بشار وأبي نواس والمتنبي ومقامات الحريري فذلك أدب لا علم ، ولكن ما حدود الادب وما حدود العلم ؟

قد عودتنا الطبيعة أن الاضداد تفهم ما تباعدت ، فاذا ما تقاربت حدودها صعب فهمها ، ما أسهل ماتقول ان هذا ظل وهذا شمس ، ولكن عند تقارب الظل من الشمس تجد خطوطاً يصعب أن تقول أهي ظل أم شمس ، وما أسهل ما تقول ان هذا الماء حار أو بارد اذا اشتدت حرارته وبرودته ولكن ما أصعب ذلك اذا أخذ الحار يبرد والبارد يسخن فانك تصل لا محالة الى درجة يعسر عليك الحكم فيها بالحرارة أو البرودة .

أكبر ظاهرة في التفريق بين الادب والعلم أن الأدب يخاطب العاطفة ، والعلم يخاطب العقل ، فاذا قلت ان زوايا المثلث تساوي قائمتين فانك تخاطب العقل ولا تمس العاطفة واذا قال المتنبي :

خلقت ألوفا لو رحلت الى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

فهو يمس العاطفة أولا ، ومن أجل هذا كانت الجملة الاولى علما وبيت المتنبي أدباً .

العالم يلاحظ الاشياء يستكشف ظواهرها وقوانينها وعلاقتها بأمثالها وما يحيط بها ، على حين أن الاديب لا ينظر اليها إلا من حيث أثرها في عواطفه وعواطف الناس ، ينظر النباتي الى شجرة الورد فيدرس كل جزء منها والتغيرات التي تطرأ عليها من وقت بذرها الى وقت فنائها ، ومن أية فصيلة هي ، وما علاقتها بالفصائل التي تقرب منها ، أما الأديب فينظر الى أجزاء الشجرة منسقة متناسبة ويرى أنها لم تخلق إلا لزهرتها الجميلة ، وأن بين الزهرة وقلبه نسباً ، يعجب بحمرة لونها على خضرة أوراقها ويذهب خياله في ذلك كل مذهب أما النباتي فيبحث لم كانت الزهرة حمراء وأوراقها خضراء .

عالم الحياة لا يرى في الفتاة المحبوبة إلا انسانا خاضعاً لكل ابحاث البيولوجيا أما الاديب فيرى في محبوبته شيئاً وراء كل ما يبحث عنه العالم هي ، الحياة وهي الدنيا وهي النعيم اذا وصلت والبؤس اذا صدت ، أو يقول مع القائل :

ويلاه ان نظرت وان هي أعرضت   وقع السهام ونزعهن أليم

فالكلام اذا لم يثر عاطفة لم يكن أدباً فاذا هو خاطب العقل وحده كان علما ، واذا أمعن في اثارة العاطفة كان أمعن في الادب .

وليس الأدب وحده هو لغة العاطفة فقد تفوقه في هذا الموسيقى فهي قادرة على أن تضحك وتبكي ، وتسر وتحزن ، وتسر سرورا حزينا ،

وتحزن حزنا سارا، وتؤلم ألما لذيذا، وتلذ لذة أليمة، وتثير الشجاعة حتى لتدفع الى الموت، وتثبط الخمول حتى لتدعو الى النوم. تقدر الموسيقى أن تفعل كل ذلك فى العاطفة، وهى أقدر من الأدب لأن الادب يخاطب العاطفة بواسطة الكلام ومن طريقه أما الموسيقى فتخاطب العاطفة وجها لوجه من غير وسيط. تؤثر فيك أدوار العود والقانون والبيانو ولو لم تصحب بكلام ولو لم تفهم أى معنى منها، بل قد تكره أن تفهم الا النغم وحلاوته والتوقيع وعذوبته.

أما الأدب فلما اعتمد على الكلام والكلام انما يفهم بالعقل، كان لابد للقطعة الادبية من قدر من العقل ومن المعانى تستثار بها العاطفة وتهيج منها المشاعر.

وارتباط العاطفة بالأدب هو الذى منح الادب — لا العلم — الخلود، فالنتاج الأدبى خالد أبدى لا النتاج العلمى، فقصائد امرىء القيس والنابغة وجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى كلها خالدة تقرؤها فتلتذ منها كما يلتذ منها من كان فى عصرهم، فأن احتاج الى شيء فتفسير ما غمض من الألفاظ والمعانى، وهو بعد يشعر بشعورهم ويسر كسرورهم. ثم القطعة الادبية لا تمل، تقرؤها ثم تقرؤها فتسر منها فى الثانية سرورك منها فى الاولى، بل تحفظها ثم تعشق تلاوتها وتكرارها. وليس ذلك هو الشأن فى العلم فحقائق العلوم خالدة ولكن منتجات العلوم غير خالدة فما فى كتاب أقليدس من نظريات هندسية خالدة ولكن الكتاب لا يقرؤه الآن الا من أراد أن يرجع الى تاريخ الهندسة، وكل كتاب فى الهندسة يموت بمرور سنين عليه ولا تعود له قيمة الا القيمة التاريخية مهما حوى من نظريات جديدة وترتيب جديد، وكذلك كتب الحساب والجبر والطبيعة والكيمياء والفلك ليست خالدة وان كانت الحقائق التى فيها خالدة، بل الطبعة الثانية من هذه الكتب تقضى على الطبعة الأولى بالفناء اذا دخلها تغيير، وليس طالب علم الآن يرجع الى ما ألف من خمسين عاما الا اذا أراد أن يؤرخ العلم ولكن طالب الأدب يرجع الى ديوان المتنبى الآن ليتذوق أدبه ويلذ مشاعره كما كان ذلك منذ ألف عام، وقد حفظت بعض قصائده، ولا أزال أستمتع بترديدها ولكن ان أنت قرأت كتابا فى الرياضة وفهمت ما فيه لا تستطيع بحال أن تعيد قراءته الا على مضض.

والسبب فى هذا — على ما يظهر — أن عواطف الناس لم تتقدم كما تقدمت عقولهم. قد ترقى العواطف شكلا فترى أن الاحسان الى الفقير بأعطائه درهما ليس خيرا ولكن خيرا منه بناء مستشفى وانشاء ملجأ ونحو ذلك، ولكن العاطفة هى هى فى أساسها، وقد ترقى عاطفة الحنو الأبوى فلا ترى مانعا من دفع الاولاد الى حرب الحياة وجوب الاقطار، ولكن العاطفة فى أساسها واحدة، أما العقل فوثاب دائما راق أبدا، فى الشكل وفى الاساس يرى حلالا اليوم ما كان حراما بالأمس ويرى حقا الآن ما كان باطلا من قبل ويخترع كل يوم جديدا ويصوغ حياته وفق الجديد. ومن أجل ذلك لا يلذ له أن يقرأ عقل السابقين الا كما يقرأ تاريخهم ولكن عواطفه هى هى ركزت وثبتت فتلذذ اليوم بما يمثل عواطف الاقدمين وان كرت عليها الدهور وتوالت العصور. وليس الامر بهذا القدر من السهولة فى الفصل بين الادب والعلم، فهناك أنواع يصعب الفصل فيها حتى على الخاصة أأدب هى أم علم، هناك أدب «معلم» وهناك علم «مؤدب» هناك تاريخ صيغ صياغة أدبية فلا يكتفى بسرد الحقائق وتعيين زمن وقوعها وإنما يضع ذلك فى قالب يثير شعورك للاحتذاء، والقدوة أو للحب أو الكراهة. وهناك فلسفة صيغت فى قالب قصة. وهناك طبيعة وكيمياء صاغتها يد صناع ماهرة فى الفن تحمل قلم أديب فأخرجت منها موضوعات شيقة تثير عاطفة الجمال وتستخرج الأعجاب بما فى هذا العالم من ابداع وفن.

هذه الموضوعات وأمثالها ليست أدبا خالصا ولا علما خالصا وانما هى علم أدبى أو أدب علمى، هى أدب بمقدار ما تثير من عاطفة، وهى علم بمقدار ما فيها من حقائق.

العلم لغة العقل، والأدب لغة العاطفة، ولكن لا بد فى هذه الحياة أن يلطف العلم بالادب، والادب بالعلم، فالعقل اذا جمح استخف بالشعور وجعل الحياة ثمنا للعلم، وهو اذا مزج بشيء من الادب مس الحياة ورفه على الناس، والعاطفة اذا شردت كانت ثورانا وهياجا. ألا ترى التعجب يزيد فيكون نباحا، والعشق يهيم فيكون جنونا ؟

احمد امين

حظ الاديب فى مصر

للأستاذ عبد العزيز البشرى

خاض بعض أفاضل الكتاب فى هذا الحديث فتظاهروا على أن الأدب لا يجدى فى مصر على أهله، وإن هو أجدى بعض الاحيان ففى شح وتقتير، إذ هو فى بلاد الغرب يعود بالغنى والثراء، وقد يعود بأوسع الغنى وأضخم الثراء. وراحوا يشتعبون مذاهب العلل والاسباب لهذه الحال: ومن بين هذه الاسباب قلة عدد المتعلمين فى البلاد، وفتور هؤلاء عن اقتناء كتب العلم والادب، وخاصة اذا استخرجت منهم أثمانها، وانتشار الادب الرخيص تنتضح به بعض المجلات الاسبوعية فيقبل عليه الشباب من المتعلمين ومن لا يزالون فى طريق التعلم مطاوعة للشهوة، ولانه لا يحتاج الى كد ولا مطاولة. وكذلك اضافوا الامر الى أثرة الناشرين واستغلالهم حاجة الادباء وضعف وسائل هؤلاء الى القيام بنشر آثارهم بأنفسهم. ثم الى عدم عناية القادرين، من أى صنف كانوا، بالادب الرفيع يذكونه بألوان المعونة والتشجيع.

وكل هذه الاسباب لا تعدو فى رأيى الحق الواقع فى كثير ولا قليل. وعلى ذلك لم أدفع القلم اليوم لمناقشتها والتماس سواها، وإنما لأسرد تاريخاً موجزاً لصلة الادب بالمادة فى بلادنا ابتداء من الجيل الذى شهدنا طرفه الى غاية هذا الجيل الذى نعيش فيه.

كان الأدب من بضع وخمسين سنة مجرد حلية وزينة يتكلفه المتأدبون إما للمفاكهة والتعابث والتظرف. واما للزلفى طلبا للتمكين من المنصب أو الحظوة عند أولى الأمر، أو استخراجا للاحسان.

لم يكن الادب، فى الجملة، اذن يطلب غرضا ساميا سواء من امتاع النفس باطلاعها على ما فى الكون من فتنة وجمال، أو معالجة القضايا العامة وملابسة الأسباب الدائرة بين الناس. فكان الشعر فى الجملة أيضا، يدور فى المذاهب التى سلكها العرب الأقدمون من مدح وهجاء، وفخر وغزل ورثاء: على أنه حتى فى هذه الأغراض الضئيلة لم يكن أكثره على شيء من الخطر سواء فى سمو المعانى أو فى قوة الأداء. بل كان نسلا ضعيفا متزايل الاجزاء. وكيف بشعر لايزيد على أنه نقض دارس مما أزل شعراء العهد العثمانى: التماس للمحسنات البديعية من جناس وتورية واستخدام، بالغة ما بلغت المعانى وواقعاً ما وقع نظم الكلام.

أما النثر، وأعنى النثر الفنى بالضرورة، فكان أشد نسولة وأبلغ تزايلا؛ كلام لا يكاد يجرى لغرض أو يستشرف الى غاية: انما هو السجع يلتزم فيه كله فترى فيه السخن والبارد، والحلو والحامض.

لم يكن من شأن هذا المقال أن يعرض للاسباب التى بعثت هذا الادب القوى العالى الذى نذوقه اليوم، فذلك مبسوط فى كتب تاريخ الادب العربى. وانما عقدنا هذا الكلام لايراد موجز من تاريخ التكسب بالادب عندنا فى العصر الحديث كما ذكرنا فى صدر هذا المقال.

لقد كان التكسب بالشعر، فى الجملة، من طريق واحدة، هى ان طائفة ممن يتكلفون نظم الكلام كانت الحاجة تبعثهم الى أن يرتصدوا لحكام البلاد وأعيانها ومياسيرها حتى اذا دخلت على أحدهم نعمة من أى لون كانت أو مات له ولد أو نسيب بادروا بازجاء التهنئات يموهون حروفها بماء الذهب، أو المراثى يجللون رقاعها بالسواد، ولا يزالون يختلفون اليه فى طلب العطية. وقد لايظفرون، فى الغاية، الا بتسريح بغير احسان. ولقد أساء هؤلاء الى الادب اساءة بالغة، بحيث نشأت ناشئة الجيل الماضى وهى لا تكاد ترى فى الادب الا الكدية، ولا فى الاديب الا أنه شحاذ!

أما التكسب بالنثر فكان له طريق آخر أقبح من ذاك وأخزى. وذلك باصدار صحف صغيرة حقيرة لقد تظهر مرة فى الاسبوع أو فى الشهر أو فى نصف العام. ومادة كسبها فى الواقع من تخويف ضعاف النفوس بتشهيرهم وطلب معايبهم والتدسس الى مكارههم إلا أن يشتروا أعراضهم، فان فعلوا والا فلأمهم الهبل.

ولقد انتهى، والحمد لله، هذان الضربان من التكسب بالادب ولم يبق لهما فى بلادنا، على ما أرى، من أثر. ولعل ذلك راجع الى تغير فهم الناس لمعنى الادب، وارتفاعهم به على ذلك الهوان، والى انتشار الثقافة بوجه عام، والى خشية سطوة القانون بوجه خاص.

وليس معنى هذا أنه لم يكن هنالك أدب ولا أدباء، بل كان الشعراء وكان خيار الكتاب، الا أنه لم يكن يتكسب أحد من هؤلاء (ما عدا الصحفيين المحترفين) بصنعة القلم.

نعم كانت الصحافة بمعناها الصحيح، ولا زالت مهنة كريمة نبيلة تجدى على أصحابها وعلى المشتغلين بها مايعودون به على شملهم، بل ما قد يغنيهم ويضيف اليهم الثروات الضخام. أما هواة البيان، على حد التعبير الحديث، فلم يكن لهم من هذه الجدوى نصيب.

ثم كانت (الجريدة) وقام على شأنها استاذنا العلامة الكبير أحمد لطفى السيد بك، فرأى أن يدعو نفراً من كبار العلماء

والكتاب الى تغذية الجريدة من وقت لآخر بالمقالات المتخيرة المنتقاة فى مختلف أسباب الحياة، واجتعل لهم على ذلك الجعالات. ولعله فى ذلك كان متهديا بسنة الصحافة فى بلاد الغرب.

على أنه لما اشتدت قوة الصحافة فى مصر وعظم انتشارها بحكم اطراد الحضارة وكثرة المتعلمين، وازدياد تتبع الجمهرة للاسباب العامة وشدة اهتمامها بها — اضطرت — كبريات الصحف، بنوع خاص، الى العناية بتجويد تحريرها، واغزار مادتها، حتى لقد جردت بعض صفحاتها لطريف البحوث فى شتى العلوم والفنون، وفوق أنها أضعفت وظائف محرريها أضعافا. فقد جعلت كذلك تؤجر الكاتبين فيها من غير محرريها بما لم يكن يحلم به أحد من عشر سنوات خلت.

هذه حقيقة للأدباء أن يغتبطوا بها، واذا كان المدى بين حظوظهم وبين حظوظ رصفائهم فى الغرب لا يزال فسيحا، فلهم من الأمل فى القريب مزيد إن شاء الله.

° ° °

بقى الحديث فى التكسب بالأدب من طريق نشر الكتب ودواوين الشعر. والذى شهدناه من أعقاب الجيل الماضى ولا نشهد غيره الى اليوم أن الكسب من هذه الطريق يكاد يكون مكسورا على جماعة الوراقين كما قال بحق بعض كبار الكاتبين. على أننى أرجو منه أن يأذن لى فى استثناء أصحاب الكتب المقررة للتدريس، فاؤلئك وحدهم المجدودون، أو الذين كانوا مجدودين الى وقت قريب.

لقد كان الأدب عندنا، ولعله لا يزال عند الاكثرين الى الآن ينتظم فى سمط الكماليات، والكماليات عند أكثر الناس ليست حقيقة بأن يخف المرء اليها، اللهم إلا إذا واته عفوا، أو بغير مشقة ولا جليل انفاق. فبات بديها ألا تنفق كتب الأدب حتى تعود على أصحابها بنفقات طبعها، بله الثروة وكرائم الأموال.

أما كتب العلم، فان العلم يطلب فى بلادنا على أن يفضى الى إحراز شهادة رسمية تقلد محرزها منصبا حكوميا، فاذا لم يكن الأمر على هذا فلا كان علم ولا كان تعليم!

هذه حقيقة واقعة أرى أن انكارها ضرب من الغش والتدليس مشايعة لهوى الجمهور، والعياذ بالله! لعل واحدا فى كل ألف من الذين ختموا دروسهم فى بلادنا هم الذين يشقون كتابا علميا لا تدعوهم الى شقه حاجة المهنة. نعم لعل فى الألف من المتعلمين واحدا أو دون الواحد هم الذين يطلبون العلم ويراجعون مدوناته ليكملوا أنفسهم، وليتزيدوا من معارفهم، ويفسحوا فى ملكاتهم. العلم عسير الهضم، يكد الذهن ويجهد النفس، فقيم مكابدته وشدة المطاولة فى تحصيله ما لم تقض بتحصيله ضرورة ملحة قاسية، من ارهاق الولى أو الحاح الحاجة، أو جموح الشهوة الى المنصب يعرض الجاه، ويعز فى الأهل والصحاب! . فكيف تريدون أن تنفق عندنا كتب العلم للعلم؟! ....

أما الكتب المقررة للتدريس فهى التى كانت الى وقت قريب، تدر على أصحابها الكثير، بل الذى يستطيعون أن يكاثروا به أعلى مؤلفى الغرب قدرا وأبعدهم صوتا! ولا أحسب أن هذا الاجداء كله يرجع الى فضل المؤلفين وحده وعظم تجويدهم لما يخرجون من فنون الكتب، بل لعل شيئاً من ذلك يعود الى أن هذه الكتب مفروضة فرضا على العديد الاكبر من تلاميذ المدارس تشتريه وزارة المعارف لهم أو تريدهم على شرائه، وإلا خذلوا فى الامتحان وأفلتتهم الاجازات، أو على الاصح فاتهم التأميل فى المناصب الحكومية، ولا حول ولا قوة الا بالله!

الواقع أن أكثر الكتب المقررة موف على الغاية من التجويد والاحسان، ولكنها غير مدينة فى رواجها الى هذا التجويد والاحسان. بل هى مدينة فى ذلك، مع الاسف الكثير، لأنها مفروضة على التلاميذ فرضا، ولو قد عدل عنها ما أخرجت المكتبات عشر المخرج منها على أسخى تقرير. وهذه الحقيقة المرة القاسية ترينا مبلغ حظ العلم والأدب فى هذه البلاد.

ومهما يكن من شىء فان لنا أن نغتبط، ولو قليلا، اذا نحن قسنا حاضرنا بماضينا القريب، فبين مؤلفينا من يستردون من أثمان مؤلفاتهم ما أخرجوا لطبعها، وفيهم من تفضل عليهم من الربح الكثير أو القليل. وكل الذى نرجو أن تطردهم الشباب فى تحصيل العلم الصحيح، وتتجرد عزائمهم فى طلب الأدب العالى، معرضين عن التماس هذا الأدب الهين الرخيص هنالك تنبعث فى البلاد الحياة القوية العزيزة، وهناك يجازى العلماء والأدباء بما يكافىء الجهد العظيم؟

عبد العزيز البشرى

أثر الثقافة العربية في العلم والعالم

بقلم أحمد حسن الزيات

٢

فرغ العرب من رسالتهم الدينية بانقضاء الفتوح، ولم يكد الأمر يستوثق لهم والنظام يستقر بهم وظلال الأمن ترف عليهم حتى أخذوا يبلغون العالم رسالتهم العلمية بذلك العزم الذى لا ينكل عن خطة ولا يقف دون غاية . وكان مهبط الوحى بتلك الرسالة بغداد لأنها البلد الأول الذى رفرف عليه السلام وتدفق فيه الغنى واشتد به الخلاط وتجمعت لديه شتى الوسائل . ومن خير هذه الوسائل التى حققت هذا الشرف للعراق أن علماء النساطرة الذين نفوا إليه من الممالك الرومانية الشرقية لأسباب دينية، كانوا قد أنشأوا فى إديسة من بين النهرين مدرسة تنشر علوم اليونان والرومان، ولما أغلقها الأمبراطور زينون الأوزريالى لأسباب دينية أيضاً، لاذوا بأكناف بنى ساسان فلقوهم لقاء جميلا، وأقام لهم أنوشروان فى جنديسابور مدرسة وصلت ما انقطع من تلك الحركة . وكان الأمبراطور جستنيان يومئذ قد فتح باب الجور على أساتذة المدارس الأفلاطونية فى أثينا والاسكندرية فألجأهم للجلاء والشراد فما اعتصموا منه إلا بفارس . وأخذ هؤلاء وأولئك ينقلون إلى السريانية والكلدانية كتب أرسطو وسقراط وجالينوس وأقليدس وأرخميدس وبطليموس، فكان ماترجموه من العلوم ومن خرجوه من العلماء نواة صالحة لهذه النهضة المباركة التى نهد لها الخلائف الأولون من بنى العباس . كان أول من تلقى وحى هذه الرسالة الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور فأنشأ المدارس للطب والشريعة واستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور ونفرا من السريان والفرس والهنود فترجموا له كتبا فى الطب والنجوم والأدب والمنطق . ثم حملها من بعده الرشيد فنفخ فيها من روحه ونشرها فى العالم بروحه وترجم فى زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والفلك والجبر والنبات والحيوان . فلما تلقاها المأمون لم يبق من كتب العلوم والفنون والصناعة شىء فى العبرانية واليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلا نقل إلى العربية . ولم يقف العرب عند الدرس فى هذه المترجمات وإنما أقبل بعضهم على تحصيل اليونانية واللاتينية ليرجعوا بهما الى بعض تلك الأصول . وفى مكتبة الاسكوريال ما يثبت ذلك من قواميس عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية قد ألفها العرب للعرب . ثم أقبل الناس فى الشرق والغرب على هذه العلوم يعالجونها بالشرح والتحليل حتى اجتازوا سراعا دور التلمذة والتقليد الى دور الابتكار والتجديد، فهبوا ينشئون المدارس ويقيمون المراصد ويمحصون المسائل ويؤلفون الرسائل ويؤسسون المكاتب ، وقد جروا فى ذلك الى أبعد الغايات . ذكر (بنيامين دتوديليه) أنه رأى فى الاسكندرية عام ١١٧٣م عشرين مدرسة ، فما ظنكم ببغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وقد كان فيهن عدا العدد الوفر من مدارس الثقافة العامة جامعات للثقافة الخاصة وما يتبعها من وسائل البحث كالمعامل والمراصد والمكاتب؟

وانكم لتكبرون ما بذله العرب من الجهود الجبارة فى سبيل المدنية والعلم اذا قستموه بما خلفوه من البحوث وما ألفوه من الكتب . فقد تناولوا أصول المعارف الانسانية بالتقصى الدقيق والغوص العميق حتى فرعوها الى ثلاثمائة علم أحصاها طاشكبرى زاده فى كتابه مفتاح السعادة . ثم استنزفوا الأيام فى معاناة التأليف على صعوبة النسخ وكثرة المؤونة وقلة الجدوى . فتركوا للعالم ذلك التراث الضخم الذى اشتملت عليه مكاتبهم فى الشرق والغرب . فقد ذكر (جيبون) فى كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان فى طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلد أحرقها الفرنج سنة ٥٠٢ هـ ، وقال المقريزى انه كان فى خزانة العزيز بالله الفاطمى مليون وستمائة ألف مجلد نزل بها مانزل بمصر من الاحداث فأغرقت فى النيل أو ألقيت فى الصحراء تسفى عليها الريح حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب! وروى المقرى انه كان بخزانة الحكم الثانى بقرطبة أربعمائة ألف مجلد فهرسها أربعة وأربعون للفهرس، وأبلغها الأستاذ جوستاف لوبون الى ستمائة ألف ، ولاحظ بهذه المناسبة أن شارل الحكيم الذى اعتلى عرش فرنسا سنة ١٣٦٤ أى بعد خلافة الحكم بأربعمائة سنة، لم يستطع أن يجمع فى المكتبة الأهلية بباريس حين أسسها الا تسعمائة مجلد كتب ثلثها فى علوم الدين . ناهيكم بالثمانين ألف مجلد التى دمرها (كيمينيس) فى ساحات غرناطة وبما أحرقه التتار فى بخارى وسمرقند وأغرقه هلاكو ببغداد عاصمة العلم والعالم فى ذلك العهد، ويلوح لى أنه ليس فى ذلك كثير من المبالغة ، فان فى المؤلفين من تبلغ تصانيفه بضع مئات ، وان فى المؤلفات ما يقع فى عشرات

المجلدات، فلابي عبيدة مائتا كتاب، وللكندي واحد وثلاثون ومائتان، وللرازي مائتان، ولابن حزم أربعمائة، وللقاضي الفاضل مائة. وجاء في نفح الطيب أن مؤلفات عبد الملك بن حبيب عالم الاندلس قد بلغت الالف. على أن توالي الفتن والمحن على العالم الاسلامي لم يبق للعصر الحديث من هذا الكنز المذخور والمجد المسطور الا ثلاثين ألفا وزعت على مكاتب العالم!

يزعم بعض المتعصبين من العلماء الأوربيين ان العرب انما كانوا في العلم حملة على اليونان ونقلة عنهم، فليس لهم اصالة فكرية ولا عقلية فلسفية. ولو لم يكن للعرب على زعمهم من الاثر الا انهم انقذوا هـــذه الكتب من عدوان الارضة، وحفظوا تلك العلوم من طغيان الجهالة، حتى أدوها صحيحة نقية الى العصور الحديثة لكان لهم بذلك وحده الفخر على الدهر والفضل على الحضارة. فكيف والواقع غير ما يدعون بشهادة المنصفين منهم؟ فان ملايين الكتب التي دمرتها بربرية اسلافهم في الغرب، واشباه اسلافهم في الشرق، لم يكن مانقل منها عن خوالي الامـــم الا بضع مئات كانت أساساً لبناء باذخ ضخم شاده العرب، ونواة لدوحة باسقة ظليلة رواها وغذاها الاسلام. فالطب قد أخذوا أصوله عن ابقراط وجالينوس وبعض السريان والهنود، ولكنهم نقوا هـــذه الاصول من الشعوذة، ورقوها بالترتيب، ونموها بالتجربة، وانتقدوا مذاهب القدماء في تعليل بعض الادواء، واستحدثوا في التشخيص والعلاج نظريات وعمليات ووسائل أطبق الباحثون على أنها لم تعرف لمن قبلهم، ولم تنسب الى غيرهم، ككشفهم علاج اليرقان والهيضة. واخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب في الفالج والحمى واللقوة على غير ماألف الأقدمون. فعل ذلك صاعد بن بشر ببغداد فنجح تدبيره فاقتدى به سائر الاطباء بعده. وهم أول من استعمل المرقد في الطب، والكاويات في الجراحة، وصب الماء البارد لقطع النزيف. وقد فطنوا الى عملية تفتيت الحصاة، وعين ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المعروف عند الفرنج (بالبوكاريس) موضع البضع لاخراجها، وهو ما عينه متأخرو الجراحين من الفرنج. وابو القاسم هذا هو الذي قال فيه الاستاذ هالير: «إن كتبه كانت المنهل العام الذي نهل منه جميع الجراحين بعد القرن الرابع عشر» وابو بكر محمد بن زكريا الرازي أول من كتب في أمراض الاطفال، وألف في الجدري والحصبة، واستعمل الكحول والحجامة في الفالج. والرئيس ابو علي بن سينا أمير الاطباء، وجالينوس العرب كما يلقبه الفرنج وضع كتابه القانون فكان شريعة الطب في العالم زهاء ستة قرون. وكان عمدة التدريس في جامعات فرنسا وايطاليا ولم ينقطع تدريسه من جامعة مونبليه إلا أواسط القرن التاسع عشر. وقد تعرض فيه بالتفصيل الدقيق الى علم الصحة وقرر نظرية (الهجيين) الرياضي وهي نظرية كان المظنون انها من ثمرات العلم الحديث. ومن الاقوال المأثورة ان الطب كان معدوما فأحياه جالينوس، وكان متفرقا فجمعه الرازي وكان ناقصا فأكمله ابن سينا. واذا مضينا نذكر أمثلة مما جدد سائر الاطباء العرب كابن زهر وابن رشد وابن باجة وابن طفيل استبحر القول والتاث علينا تحديده وحصره. وفي كتاب طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وتراجم الحكماء لابن القفطي وتاريخ الطب العربي للـكتور لكلير ما ينقع غلة المستزيد. وللعرب القدم الأولى واليد الطولى في الصيدلة والكيمياء والنبات، وهي في رأيهم شعب من علم الطب أو لواحق به. فهم واضعو أصول الصيدلة وأول من مارس تحضير العقاقير واستنباط الادوية. كذلك هم أول من ألف في الاقرباذين على هذا النمط، وأقام حوانيت الصيدلة على هذا الوضع. وظل العرب معتمدين في المارستانات والصيدليات على أقرباذين وضعه سابور بن سهل في منتصف القرن الثالث من الهجرة حتى نسخه اقرباذين ابن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠ ببغداد. ولاتزال اسماء العقاقير التي أخذها الفرنج عن الشرق في كتبهم على وضعها العربي المرتجل أو المنقول. ولانزاع اليوم في أن علم الكيمياء الصحيح انما يؤرخ وجوده بجهود العرب فيه. فانهم في سبيل العثور على الاكسير أو انكاره هدوا الى عمليات أساسية ومركبات كيميائية كان لها الأثر الظاهر في تأسيس هذا العلم. والفرنج يعترفون للعرب بانهم عرفوا التقطير والترشيح والتصعيد والتذويب والتبلور والتكليس، وان جابر بن حيان وأخلافه قد استنبطوا طائفة من الاحماض التي تستعمل اليوم. كذلك برع العرب في علم النبات وبخاصة مايتصل منه بالطب، فقد استفادوا مما كتبه دسقوريدس وزادوا عليه ماوفقوا اليه من شتى الانواع ومختلف الشكول. والعلماء لسان واحد في أنه لم يأت بين دسقوريدس اليوناني ولينيه السويدي المتوفى سنة ١٧٠٧ أطول باعا ولا أوسع اطلاعا في هذا العلم من ابن البيطار المالقي. فانه درس كتاب دسقوريدس ثم رحل الى بلاد اليونان وأقصى ديار الروم فحقق انواع النبات

بنفسه، واتصل ببعض من يعانون ذلك فاستعان بفهمهم على فهمه، وأضاف عليهم الى علمه، ثم عبر الى المغرب فقام بمثل ذلك، وطلب منابت العشب في مصر والشام فدرسها حق الدراسة ثم وضع بعد طول الدرس وسعة الخبرة كتابه الموسوم بجامع مفردات الأدوية والأغذية فكان اجمع الكتب في فنه. ومرجع الاوربيين في موضوعه. ولا يقل عن ابن البيطار في التفوق والفضل معاصره ومؤازره رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ فقد بلغ من اتقانه انه كان يخرج الى الاودية والفلوات في درس النبات ومعه مصور قد استكمل آلته وأصباغه، فيشاهد النبات ويحققه ويريه المصور في ابان نباته وفي وقت كماله ثم في حال ذراه ويبسه، فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ثم يصوره في كل طور من اطواره بالدقة. وذلك غاية مابلغته الامانة العلمية اليوم من الكمال. اما أثر العرب في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية فحسبنا أن نشير الى انهم أول من نقل الارقام الهندية الى أوربا، واول من استعمل الصفر في معناه المعروف، وان كلمة الجورتمي اللاتينية مشتقة من اسم الخوارزمي محمد ابن موسى المتوفى سنة ٢٢٠ هـ وان الجبر باسمه العربي يكاد يكون علما عربيا بعد ان وضع الخوارزمي كتابه في الجبر والمقابلة. وقد قال (كاجورى) في كتابه تاريخ الرياضيات: « ان العقل ليملكه الدهش حينما يقف على اعمال العرب في الجبر ». وفي مادة المثلثات من دائرة المعارف البريطانية أن العرب أول من أدخل المماس في عداد النسب المثلثية. وهم الذين استبدلوا الجيوب بالأوتار وطبقوا الجبر على الهندسة وحلوا المعادلات التكعيبية. وفي الفيزياء أو علم الطبيعة كشفوا قوانين لثقل الاجسام جامدها ومائعها، وبحثوا في الجاذبية وقالوا بها. وكان ابو الحسن علي بن اسماعيل الجوهري أول من وضع مبادىء الضوء وأوضح أسباب انعكاسه عن النجوم، وأصلح الخطأ الشائع يومئذ من ان الاشعة تنشأ في العين ثم تمتد الى المرئيات. وتشهد دائرة المعارف البريطانية في مادة الضوء أن بحوث العرب فيه هدت العلماء إلى اختراع المنظار. وفضل العرب على الفلك من البينات المسلمة، فقد رصدوا الافلاك وألفوا الأزياج وابتكروا آلات الرصد وصححوا اغلاط اليونان والهنود وحسبوا الكسوف والخسوف ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها. وذكر (سكوت) في كتابه المملكة الاندلسية ان عالما من طليطلة رصد أربعمائة رصد ونيفا ليحقق أبعد نقطة في الشمس عن الأرض ولم يختلف حسابه في ذلك عن أدق المباحث الحديثة الابجز من الثانية. ويقول (كاجورى) ان اكتشاف بعض الخلل في حركة القمر يرجع الى ابي الوفاء الفلكي الزرجاني لا الى تيخو براهي. وقد عد لالاند الفلكي الفرنسي البتاني في العشرين فلكيا المشهورين في العالم كله ولاتزال طائفة الاصطلاحات العربية في الفلك مستعملة في كتب الفرنج كالسمت والنظير والمناخ والمقنطر والسموت فضلا عن اسماء النجوم والعربي منها لايقل عن النصف.

واما أثرهم في الفلسفة المدرسية فان الكندي والفارابي وابن سينا في الشرق، وابن باجة وابن طفيل وابن رشد في الغرب، قد توفروا على فلسفة اليونان بالدرس والشرح والتمحيص حتى جددوا دارسها وجلوا طامسها وكملوا ناقصها ووسموها بسمة الحرية والعبقرية والنضوج. ولقد أثار ابن سينا بفكره الحر المنظم، وعقله القوي المنطق، مسائل من العلم تشغل اذهان الباحثين اليوم. ووضع ابن طفيل قصته الفلسفية (حي بن يقظان) فأبان عن قوة نادرة في التفكير، وموهبة عجيبة في التصوير، واستيعاب منتج للأفلاطونية الحديثة. وقد نقل هذه القصة الى اللاتينية (إدوار بوكوك) سنة ١٦٧١ فظهر أثرها سريعا في قصة (روبنصون كروزويه). وشهد رينان لابن رشد في كتابه عنه «أنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع ارسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول». ودخلت العالم المسيحي فلسفة ابن رشد وفلسفة ارسطو فكان الاعتراض عليهما شديدا والاعجاب بهما أشد. وكان اللاهوتيون في القرون الوسطى يعجبون بابن رشد وسعة علمه ودقة فهمه ونفاذ بصيرته ولكنهم كانوا يخشون أثر رأيه الجريء في العقائد. وتجدون (دانتي) في الملهاة القدسية قد جعل ابن رشد وابن سينا في المقام الذي جعل فيه عباقر الرجال من جهنم. تلك يا سادتي إشارات مبهمة مجملة إلى جهود العرب في العلم وآثارهم في الفكر تجدون بيانها وتفصيلها في تاريخ هذه العلوم، عرضتها بهذا الاجمال على سبيل المثال لنقول لاصحاب ذلك الرأي الظنين الأفين ان التجديد في العلم يستلزم الاستقصاء البالغ والتمثيل التام والفكر المستقل، وان العرب كما قال البارون (كارادفو) لم يكونوا نقلة للعلوم فحسب. ولكنهم بذلوا الجهد في اصلاحها وتحقيقها، وأفرغوا الوسع في بسطها وتطبيقها، حتى أدوا أماناتها الى العصر الحديث.

« يتبع ....

فلسفة شـــوبنهور

للاستاذ زكى نجيب محمود

عصره :

سادت فى أوروبا روح التشاؤم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتملك النفوس يأس قاتل، وارتفعت بذلك أصوات الشعراء والفلاسفة فى كل ناحية من نواحى القارة : بيرون فى انجلترا، ودى موسيه فى فرنسا، وهينى وشوبنهور فى ألمانيا.

ولقد يقف المرء أمام هذه الظاهرة العجيبة وقفة لا تطول كثيرا حتى يجد أسباب ذلك فى طبيعة ذلك العصر وظروفه التاريخية : فقد انفجرت الثورة فى فرنسا ودوت فى أرجاء أوربا دوياً اهتزت من هوله عروش، وكان لصوتها صدى فى كل الصدور وأثر عميق فى كل النفوس، فمن أشراف ناقمين ساخطين، الى زراع يهللون لها ويكبرون... ثم كانت واقعة ووترلو فخفت ذلك الصوت الداوى، وعزل نابليون على صخرة سنت هيلانة الصامتة الموحشة فى عرض المحيط، وعاد (البوربون) الى ملكهم فى فرنسا، وعاد فى ذيلهم أشراف الأقطاع يطالبون بأملاكهم، وانتشرت فى أوربا حركة رجعية تعمل على طمس معالم الثورة والتجديد.

كم من ملايين الشباب زهقت نفوسهم عبثاً، وكم من عامر الأرض بات خرابا بلقعاً... فكنت لا ترى على وجه أوربا إلا آثاراً خربة وأنقاضاً هنا وهناك، ذلك لأن الجيوش النابليونية الجرارة من ناحية، وأعداءها من ناحية أخرى، أخذت تروح وتجيء أكثر من عشرين سنة قضت فيها على الأخضر واليابس، وخلفت القرى والمدائن يتنابها فقر مدقع وبؤس شامل.

ماتت الثورة الفرنسية وكأنما انتزعت معها روح الحياة من أوربا، لأن قلوب الشباب الطامح فى كل بقعة من بقاعها كانت قد صفت الى الجمهورية الناشئة وعاشت فى ظلال الأمل الوارفة حيث أملت فى مستقبل ذهبى سعيد، فما هى إلا أن وقعت الواقعة فى ووترلو حتى تحطمت كل هذه الآمال وتبدلت بمأساة سنت هيلانه ومؤتمر فينا، فدبت فى النفوس روح اليأس التى ملكت على الناس شعب الحياة، وأثر ذلك فى النزعة الدينية أثرين مختلفين: أما الطبقة الفقيرة الجاهلة فقد التجأت الى الدين تجد فى كنفه السلوى والعزاء، وأما الطبقة المفكرة فطغت على قلوبهم موجة إلحادية، ولم تعد عقولهم تسيغ أن يكون ثمة مدبر أعلى لهذا الكون.

فأما فريق العقيدة والدين فقد اقتنع بأن هذه النكبات ليست إلا اذلالا للنفوس جزاء وفاقا بما نزعت اليه من الاعتزاز بحكم العقل ونبذ العقائد وراء الظهور. وأما فريق الالحاد فقد ارتأى أن اضطراب أوربا ينهض دليلا قوياً على فوضى الحياة وعبثها، وعلى رأس هؤلاء بيرون وهينى وشوبنهور.

فلسفته :

١ — العالم فكرة

يرى شوبنهور أن الوساطة الوحيدة بين الانسان والعالم الخارجى هى الحواس والمشاعر، فأنت اذا رأيت شجرة انطبعت صورتها فى ذهنك، وهذه الصورة انما انتقلت عن طريق عدسة العين، فقد تكون مطابقة لحقيقتها الخارجية وقد لا تكون، وقل مثل ذلك فى كل معلوماتك عن أجزاء الوجود؛ فالصورة التى كونها ذهنك عن هذه الدنيا هى فكرة خلقتها حواسك ولا يتحتم أن يكون لها حقيقة واقعة مطابقة لها. واذن فالانسان كما يقولون دنيا نفسه، وأن فى الوجود من الدنى بمقدار ما فيه من عقول بشرية.

يخلص شوبنهور من هذا بأن الواجب الأول هو دراسة العقل قبل البدء بدراسة المحسوسات، لأن فى دراسة العقل المفتاح الذى نصل به الى حقائق الوجود الخارجى.

٢ — العالم ارادة

يكاد يجمع الفلاسفة على أن كنه العقل وجوهره هما الشعور والفكر، الا أن شوبنهور يرفض ذلك رفضاً، ويقول بأن الشعور إن هو الا قشرة خارجية لعقولنا لا يعرف على وجه الدقة ما تحويه فى باطنها، فهذا الغلاف المفكر يخفى وراءه ارادة لا شعورية؛ لا يخمد لها نشاط؛ ولا تنتهى لها رغبات وآمال، وهى التى تملك زمام الانسان فى كل حركاته وأعماله، أما هذا المنطق الذى نحتكم اليه فى كثير من شئوننا، والذى يخيل الينا أنه نابع من العقل الواعى، هو فى الواقع ملجم بهذه الارادة الباطنية : فنحن لا نريد الشيء لأن هناك من الأسباب المنطقية ما يدفعنا الى ذلك. ولكننا نخلق الأسباب خلقاً اذا كنا نريده ارادة لا شعورية. فالأسباب نتيجة لا مقدمة !! بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا الزعم فنقول: إنا انما نخلق الفلسفات ونبتدع الديانات لنخفى فى طياتها رغباتنا الخفية.

ابحث فى كل نواحى النشاط الانسانى، تجد دوافعه مشتقة من الارادة اللاشعورية، لا من العقل والشعور. فهذا التنافس والتناحر

على أسباب العيش من طعام ولذات . انما ينبع من ارادة الحياة التي يبطنها كل كائن في طوايا نفسه ، حتى شخصية الفرد لا تكون من أعماله العقلية ولكن من نزواته اللاشعورية التي يندفع اليها بارادته الخفية ؛ ومن هنا كانت الديانات على اختلافها تعد الجنة للارادة الطاهرة (أي القلوب) ولكنها لا تعترف بالعقول الكبيرة ولا تحسب لها في جنانها حسابا .

وليست سيطرة الارادة مقصورة على الحياة الفكرية ، بل تتعداها الى الدائرة الفسيولوجية . فارادة الحياة خلقت أوعية يجرى فيها الدم . وارادة المعرفة خلقت مخا يصل الى شتى المعارف ، وارادة القبض على الأشياء خلقت الايدى ، وهكذا نشأ كل عضو بعد نشوء ارادة وظيفته ، فحركات الجسم هي في الواقع ارادات مجسمة بل الجسم كله إرادة متبلورة .

إذن فالارادة ، لا العقل ، هي كنه الانسان بل كنه الكائنات الحية جميعا ، هذه الارادة التي نتحدث عنها هي ارادة الحياة ، وليس الحياة أيا كان لونها ، ولكن ارادة الحياة الكاملة .

وليست هذه الارادة مقسمة بين الأفراد ، أعني ليس لكل فرد ارادته المستقلة تعبث به كيف شاءت ، ولكنها ارادة واحدة تتناول الحياة بأسرها كتلة واحدة وشيئا لا يقبل التجزئة ، فالفرد ليس حقيقة في ذاته ولكنه ظاهرة لحقيقة ، فهو جزء من كل متماسك ، ومحتوم عليه بحكم ارادته أن يسير في طريق مرسوم حتى لا يضطرب نظام ذلك الكل المتحد . ومن هنا نشأت رغبة التناسل مثلا ، فهي ليست رغبة فردية ، ولكنها رغبة الحياة بأسرها وهي وحدها التي تسخر الافراد لصالحها ، لان هؤلاء الافراد هم الصورة المحسة التي تظهر فيها ارادة الحياة .

يقول سبينوزا : لو أن حجرا ألقى في الهواء وكان لديه شعور وإدراك لظن انه انما يتحرك بمحض ارادته الحرة وانه هو الذي يختار الزمان والمكان اللذين يقع فيهما . وما أشبه الانسان في حياته بذلك الحجر الملقى : كلاهما تدفعه قوة خارجية وكلاهما يتوهم أنه حر لا سلطان على ارادته .

نعم ، ارادة الحياة في عمومها حرة التصرف لانه ليس هناك ارادة تحد تصرفها ، ولكن كل قالب من قوالب الحياة ، أي كل جسد مادى يدب فيه جزء من الحياة ، محدود ولا ريب بتلك الارادة الكلية سواء أكان ذلك القالب الحي نوعا أم فردا أم عضوا من فرد .

٣ — العالم شر

مادامت الارادة أساس الحياة ، فالحياة شر كلها . ذلك لأن الارادة مبعث لسلسلة من الرغبات لا تنقطع ، والرغبة عادة تمتد إلى أكثر مما يستطيع الانسان تحقيقه : وهكذا يظل الانسان مدفوعا في حياته بآلاف الدوافع من الآمال التي ان تحقق بعضها فمعظمها خائب فاشل ، وهو أمام هذا الفشل الذي يغمره في كل خطوة يخطوها يستحيل عليه أن يتذوق في حياته سعادة مطلقة . ثم هو لا مناص له من هذه الرغبات التي يسوق بعضها بعضا ، لأن جوهر الانسان ارادة كما بينا ، فاذا هو تخلص من ارادته فقد تخلص من نفسه : ولا بد لهذه الارادة أن تعيش وتتغذى . وهذه المطامع المستمرة في حياة الفرد هي الوقود الذي تخلقه الارادة لنفسها .

والحياة كلها شر كذلك ، مادامت الآلام هي طبيعة مادتها التي تكون منها ، وليست السعادة إلا حالة سلبية يقف فيها تيار الآلام . وما اصطلحنا على تسميته بالسعادة انما هي الحالة التي ينعدم فيها وجود الألم ، أعني أن ليس ثمة سعادة ايجابية . وقد أشار ارسطو الى هذه الحقيقة بقوله ان الحكيم لا يجوز له أن يبحث عن السعادة ، بل يجب عليه أن يسعى وراء التخلص من آلامه .

وفوق هذا كله ، فالحياة شر كلها لأنها عراك دائم ، فأينما سرت صادفت تناحرا وتنافسا وجهادا ، فكل نوع يقاتل في سبيل المادة والزمان والمكان .

نعم لا ريب في أن الحياة قاسية مؤلمة ، وليس يعجب شوبنهور إلا من متفائل يبتسم لهذا العالم ، ويقول لو أن أشد الناس تفاؤلا طاف بالمستشفيات والسجون وساحات الحروب ليشهد ألوان الألم والعذاب ، ولو أنه رأى البؤس الذي يتوارى خجلا في أركان الأكواخ المظلمة . نعم لو أبصر هذا وذاك وما هو شر من ذلك جميعا ، لانقلب متشائما يؤوسا على الفور . وإلا فحدثني بربك من أين اشتق دانتي صورة جحيمه إلا من هذا العالم الذي نعيش فيه ، ومع ذلك فقد كونها صورة ما أهولها من صورة !! ثم انظر كيف اصطدم بمشكلة سقطت أمامها عبقريته عجزا واعياء عندما أراد أن يصور جنة سعيدة ، لأنه التمس من الحياة اجزاء الصورة التي يريد فعز عليه المثال !! .

٤ — الفلسفة

رأينا كم يدفع المرء من الشقاء ثمنا باهظا لأنفاسه ! وعلمنا أن الحياة بما تحوى من شر تجارة خاسرة لا تساوى ثمنها !! .

ولكن ألا نستطيع أن نرسم طريقا للسعادة ؟ ذلك ميسور اذا تغلب جانب العقل والمعرفة على جانب الارادة والرغبة من الانسان . فأنت عاجز عن ادراك السعادة اذا تملكت الارادة منك

(البقية على صفحة ١٥)

لماذا ترجمت فرتر

«الى الصديق الذى سألنى هذا السؤال وهو طليق الحرية فى بغداد فأجبته عنه وهو سجين الاستبداد فى كركوك»

تسألنى لماذا ترجمت فرتر ... والجواب عن هذا السؤال حديث، والحديث غداً سيكون قصة، وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها:

قال (جوت) يوماً لصديقه (اكيرمان): «كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن (فرتر) انما كتب له خاصة»

وأنا فى سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين! شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده.... واحساس مشبوب يتوقد شعوراً بالجمال. وقلب رغيب يتحرق ظمأ إلى الحب. ونوازع طاحة ما تنفك تجيش، وعواطف سيالة ماتكاد تتماسك...! فالطبيعة فى خيالى شعر، وحركات الدهر نغم. وقواعد الحياة فلسفة!... وكان فهمى لكل شىء، وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال. وزور نتائجه المثل الأعلى. ثم غمر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادىء ولكنه مُلِحّ، فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة. وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ، وقلبى الصادى قد ارتوى، وحسى الفائر قد سكن. وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود، وترف على جوانبه نوافح الريحان، وتزهو على جوانبه الوان عبقر، وترقص على حفافيه عرائس الحور!.. ورحت أسلك هذا الطريق السحرى محمولاً على جناح الهوى كأننى (فوست) على جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع. والحبيب بالخاطب، والعاطفة بالمنفعة!! على اننى بقيت على رغم الصدمة حياً ولا بد للحى أن يسير!!

تطلعت وراء العقبة انظر الطريق فاذا الأرض قفر والورد عوسج والريحان حمض، والعرائس وحوش.

فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس!... ولكن أين أنشدها أبغى وحولى من الفراغ نطاق مخيف، وأمامى على أسنة الصخور أشلاء وجثث!!؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينىّ، وهذه أرواح قتلاه تتهافت علىّ، وهذه سجلات مصارعهم بين يدى، فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلى، وأقطع بمناجاتهم مراحلى، وألتمس فى مواجعهم لهواى عزاء وسلوة ؟؟

قرأت هيلويز الجديدة، ورينيه. واتالا، وأودلف، ودومينيك، وماريون دلورم، ومانون ليسكو، وذات الكميليا، وجرازيلا، ورفائيل، وجان دكريف. وتوثقت بأشخاصها صلاتى، وتصعدت فى زفراتهم زفراتى، وتمثلت فى نهاياتهم المحزنة نهايتى. ولكنهم كانوا جميعاً غيرى! تتفق فى الموضوع ولكن نفترق فى الوضع، كالنساء النوادب فى مناحة، تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد هو الموت!!

فلما قرأت (آلام فرتر) سمعت نواحاً غير ذلك النواح، ورأيت روحاً غير هاتيك الأرواح، وأحسست حالا غير تلك الحال!!

كنت أقرأ ولا أرى فى الحادثة سواى، وأشعر ولا أشعر إلا بهواى، وأندب ولا أندب إلا بلواى، فهل كنت أقرأ فى خيالى أم أنظر فى قلبى، أم هو الصدق فى نقل الشعور والحذق فى تصوير العاطفة يظهران قلوب الناس جميعاً على لون واحد ؟؟

كنا يومئذ فى مايو والطبيعة تعلن عن حبها بالألوان والالحان والعطر، ونفسى تحاول أن تعلن عن هواها بالدموع والشعر، فآلامى تجيش فى عينى، وعواطفى تنزّى على لسانى، وبلابلى تتوثب فى خاطرى، وكلها تطلب السبيل الى العلانية، — والشكوى فى الحب كالطفح فى الحمى كلاهما عرض ملازم — فلما قرأت (فرتر) تنفس جوى المكظوم، واستغنى عن البيان هواى المكتوم. لأننى لو كنت صببت مهجتى على قرطاس لما كانت غير (فرتر)، وهل فرتر إلا قصة الشباب فى كل جيل؟ رجل شديد الحس قوى العاطفة يتقسم الخيال والايديال نواحى نفسه، ورجل آخر بارد الطبع عملى الفكر يعرف دائماً كيف يجر النار الى قرصه، وامرأة بينهما يجذبها إلى الأول طبعها الغزلى وقلبها الشاعر، ويربطها بالثانى عقلها المادى ووعدها المأخوذ... هذا هو موضوع آلام

فرتر وهو عينه موضوع آلامي . . . فلم لا أنقله إذن إلى لغتي لينطق عن لساني ، كما ترجم صادقاً عن ضميري ؟ ؟

***

فنيت في (جوت) وقادني إلهامه وروحه ، وأهبتُ بلغة القرآن والوحي أن تتسع لهذه النفحات القدسية فأسعفتني بيانها الذي يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون . ثم أصبح فرتر بعد ذلك لنفسي صلاة حب ونشيد عزاء ورُقيةَ هم !! كأنما كان (جوت) يناديها من وراء الغيب حين يقول في تقدمتـه لفرتر : « وأنت أيتها النفس . . . اذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدي الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسي البرء والشفاء في أسقامه ، واتخذي هذا الكتاب صاحباً وصديقاً اذا أبى عليك دهرك أو خطؤك أن تجدي من الأصدقاء من هو أقرب اليك وأحنى عليك ؟ ؟

ا . الزيات

فلسفة شوبنهور

(بقية المنشور على صفحة ١٣)

الزمام . وأنت عاجز عن درك السعادة بالمال والجاه . وهي على قاب قوسين منك اذا أسلمت قيادك الى العقل واستطعت أن تضغط على الارادة حتى تحصرها في حيز ضئيل . ويعتقد شوبنهور أن الاعجاز لا يكون في اخضاع العالم باسره بقدر ما يكون في اخضاع الارادة...

اذن فالفيلسوف وحده هو الذي يستطيع أن يتغلب على شقاء الحياة . لأنه صورة من المعرفة غير المقيدة بالارادة . واذا استطاع الفكر أن يتخلص من قيود الرغبة والهوى أمكنه أن يرى الأشياء على حقيقتها المجردة .

فالفلسفة هي عبارة عن النظر المجرد عن الارادة . هي انكار الذات عند النظر الى مظاهر الوجود واعتبارها حقائق في ذاتها دون أن تربطها بالحياة البشرية .

٥ — الفن

نحن اذن ننشد تحرير المعرفة من استعباد الارادة . ننشد انكار الشخص لنفسه عند نظره للأشياء . وليس هذا المنشود الا الفن في أصح معانيه . فالفنان العبقري يحاول أن يرى الأشياء من وجهة صفاتها العامة ولا يعبأ كثيرا بالأشباح المادية التي تمثل تلك الصفات فموضوع الفن هو تجسيد الكلي العام في جزئي من الجزئيات والصورة الفنية يجب أن تكون المثل الأعلى للشيء المصور . ومعنى ذلك أن صورة البقرة مثلا لكي تكون من آيات الفن الرفيع ، يجب أن يتجمع فيها كل مميزات هذا النوع وما يتعلق به من صفات ، كأن نوع البقرة كله قد تركز في هذه البقرة الواحدة . وصور الأشخاص يجب أن تقصد لا الى الدقة الفوتغرافية . بل الى عرض كل ما يمكن عرضه من صفات الانسان عامة في ملامح الشخص المصور . اذ الواقع أن الفنان يصور صفات . وليست الاجسام الا وسائل فقط لابراز تلك الصفات.

ولنوجز هذا في عبارة أخرى : نقول ان الصورة الفنية لشيء ما يجب أن تكون عبارة عن « المثل الافلاطوني » لذلك الشيء . وبقدر ما تقرب الصورة من ذلك المثل الخيالي تكون قيمتها الفنية.

فطربنا لجمال الطبيعة أو الشعر أو التصوير انما يصدر عن تأمل الأشياء في حقيقتها الواقعة دون أن يمتزج ذلك التأمل بوجهة النظر الشخصية . فسواء لدى الفنان أن يرى غروب الشمس من قصر منيف أو من كوة في سجن مظلم .

فالفن يمحو بؤس الحياة وعللها بأن يعرض علينا صورا خالدة من وراء هذه الصور الفردية الزائلة .

٦ — الدين

واذا كانت الفلسفة وسيلة لاتقاء شرور الحياة بما تستطيعه من اخضاع الشهوة لحكم العقل ، واذا كان الفن عاملا من عوامل السعادة لأنه لا يعبأ بالأشباح المادية التي تتحرك أمامنا وانما يعنى بحقائق هذه الأشياء الخالدة . فالدين طريق ثالث يؤدي الى سعادة النفس وطمأنينتها لأنه بدوره عبارة عن اخضاع الارادة لحكمة العقل . فالصيام الذي تفرضه الأديان جميعاً يقصد منه تدريب النفس على قهر ارادتها اوشهوتها .

٧ — حكمة الموت

وبعد . فما أعجب أن تكون الحياة كما هي شروراً وآلاما ، ومع ذلك تتخذ لها من أنفسنا عونا على الانتشار والذيوع !! يصيح شوبنهور بأعلى صوته إن الحياة سوء وشر ويجب أن نقضي عليها قضاء مبرما . ولكن كيف ؟ الحل عنده بسيط وهو أن نهجر النساء هجرا جنسياً لأنهن أس البلاء بما يقدمن للرجال من فتنة واغراء . وهو يتساءل : الى متى تدفعنا الحياة أمامها دفع الخراف وهي لا تحوي الا شقاء وعناء ؟ متى نستجمع كل ما نملك من قوة وشجاعة لنصيح في وجهها إن الحياة اكذوبة وخدعة أن نجاة الانسان وخلاصه انما هو الموت ؟ !

زكي نجيب محمود

كسوف حلقي للشمس

يقع في يوم ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣

للأستاذ عبد الحميد سماحه

« مفتش مرصد حلوان »

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته »

« حديث شريف »

حسبنا أن يكون في ذلك دليل مفحم للذين يتقولون القول وينسبون الى الكواكب سعادة قوم وشقاء آخرين ، وهي بريئة من هذا وذاك . ولكن أنَّى لنا أن نقنعهم وفريق يتخذها وسيلة للكسب ، وفريق آخر يتخذها رجاء وسلوة .

لقد انقضى ذلك العهد الذي حسب الناس فيه أن بين الكواكب وبين الأفراد والشعوب في سعادتهم أو شقوتهم وانتصارهم أو هزيمتهم ارتباطاً . وتقدمت الدراسات الفلكية في القرنين الماضيين تقدماً عظيما ، وأصبح في استطاعة الفلكيين أن يقيسوا درجة حرارة النجوم كما يقيس الطبيب درجة حرارة المريض ، واستبانوا أبعادها وأحجامها وأوزانها وتركيبها !

ولم تعد الظواهر الفلكية منذرة بالحروب والبلاء ، أو مبشرة بالسعادة والرخاء ، بل أصبحت تجربة علمية كبيرة تجريها الطبيعة فيستغلها العلماء الى أقصى حد فيما لا يتيسر لهم تجربته على ظهر الأرض . فهناك مثلا كثافة السديم نراها أدنى مليون مرة من كثافة أية مادة تصل اليها أيدينا بينما هي في بعض النجوم أعلى بمقدار مليون مرة من كثافة أية مادة على الأرض ! فليت شعري كيف يتسنى لنا أن نعرف طبيعة المادة من التجارب التي نجريها في المعمل ولا يزيد مدى كثافة المواد التي بين أيدينا على واحد في مليون المليون من المدى الكلي لكثافة المادة في الطبيعة ؟؟

لقد أصبح من الصعب إيجاد الحد الفاصل بين أنواع العلوم الطبيعية ؛ وتقدمت الاكتشافات العلمية وهي سلسلة الحلقات ، فمن ألكترونات أقطارها كسور من ملايين الملايين من البوصة ، الى سدائم تقاس بمئات الآلاف من ملايين الملايين من الأميال ! فكل زيادة في معلوماتنا الفلكية تزيد حتما في معلوماتنا في الطبيعة والكيمياء والعكس بالعكس .

لهذا كان اهتمام العلماء بالظواهر الفلكية عظيما ، فهم يستغلونها في أبحاثهم ، ويقيسون عليها نظرياتهم ، وكثيراً ما كانت الأرصاد الفلكية سبباً لاكتشافات عظيمة كان للبشرية منها نفع مادي جليل الشأن . مثال ذلك أن غاز الهليوم إكتشف أولا في تحليل طيفي للشمس أثناء كسوفها في عام ١٨٦٨ . وهذا الغاز كما نعلم عظيم المنفعة لأنه الغاز الوحيد الصالح لملء المناطيد . ونحن إنما نذكر هذا الحادث العظيم على سبيل المثال للذين يزنون العلوم بمقدار ما يمكن أن تدر عليهم أو على البشرية من نفع مادي : ولكن الغاية الأولى من الدراسات الفلكية هي البحث وراء الحقائق العلمية وحدها ولذاتها ، وهي غاية تدافع عن نفسها بنفسها .

لقد أصبح كل طالب يعرف أن الأرض ومثلها الكواكب السيارة الثمانية الأخرى انما تدور حول الشمس في مدارات دائرية ، وأن القمر يدور حول الأرض في مدار دائري أيضاً . وأنه اذا توسط القمر بيننا وبين الشمس حجب أشعتها عنا فتنكسف الشمس : ولكن يجب أن نضيف هنا أن مدار القمر حول الأرض يميل بمقدار خمس درجات على مدار الأرض حول الشمس فالثلاثة لسن في مستو واحد على الدوام ، ولولا ذلك لحدث كسوف للشمس كلما كان القمر في المحاق حيث يتوسط ويتذبذب الأرض والشمس .

لقد حسب الفلكيون أن كسوفاً حلقيا للشمس سيشاهد في القطر المصري في يوم الجمعة الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣ يبتدئ في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٣ مساء . وينتهي في الساعة الخامسة والدقيقة ٢٩ مساء من نفس اليوم .

أجل ستنكسف الشمس في ذلك اليوم . وبين هذين الزمنين المحددين بالضبط لا محالة . ولكن لا سبيل في ذلك الى التفاؤل ولا الى التشاؤم ، فليست الشمس والقمر والأجرام السماوية المختلفة الأخرى إلا آيات بينات لأولي الألباب ؟

عبد الحميد سماحه

العوامل المؤثرة فى الادب

١

ليس الأدب الا التعبير القوى الصادق عن مشاعر المرء وخواطره وأخيلته. وهذه تتأثر بأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وأنظمة الملك وتقلبات السياسة. ومن المفيد الالمام بهذه العوامل المؤثرة فى الأدب لتكون دستور المؤرخ وشريعة الأديب ونبراس الباحث فيما يصدر عن الانسان من كد الأذهان وفيض القرائح.

فمن هذه العوامل (طبيعة الاقليم ومناخ البلد) وأثرهما فى حياة الناس وسلائل الأجناس معلوم فى بدائه العقول. فأحوال الاقليم هى التى تنهج لساكنيه سنن معاشهم ونظام اجتماعهم. وتكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم. ومناظره هى التى تربى ذوق أبنائه، وتغذى خيال كتابه وشعرائه، فالشعر الجاهلى مثلا صورة صادقة لطبيعة البادية وحياة البدو: فألفاظه خشنة كالجبل، ومعانيه وحشية كالأوابد، وأساليبه متشابهة كالصخر، وأخيلته مجدبة كالقفر، ولن تجد فى غير الجزيرة العربية أمثال الشنفرى وتأبط شراً والسليك بن السلكة من هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين تغنوا بحياة البادية ومناظرها وأباعرها وغزلانها وكثبانها واطلالها وجبالها بشعر متين الحبك صادق الوصف جاف اللفظ عنجهى الخيال. وقد اختلف الشعر فى شبه الجزيرة نفسها باختلاف الأماكن: فهو فى نجد غيره فى الحجاز، وهو فى أهل الوبر غيره فى أهل المدر. ولهذا العامل وحده نعزو انقراض الأراجيز وهى أقدم الأطوار لشعر البادية حين ارتحل ناظموها من الصحارى المجدبة الى سواد العراق وريفه. وفى حواشى العراق وظلاله وخمائل نجد وجباله. اخضر عود الشعر واستقام وزن القصيد ومن ثم قال القدماء ان امرأ القيس ومهلهل بن ربيعة وعمرو بن قميئة هم أول من قال الشعر وأطال القصائد، وما كانوا فى الواقع الا زعماء النهضة الأدبية فى هذه البلاد.

وظل عامل الطبيعة يفعل فعله فى الأدب خلال القرون فخالف بين الشعر فى عواصم الشرق وبينه فى الأندلس. فقد وجد شعراء العرب فى اوربا ما لم يجدوه فى آسيا من الاجواء المتغيرة والمناظر المختلفة والامطار المتصلة والجبال المؤزرة بعميم النبت. والمروج المطرزة بألوان النور. فهذبوا الشعر وتأنقوا فى ألفاظه ومعانيه، ونوعوا فى أوزانه وقوافيه، ودبجوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر. وسلكوا به مسلك التنوع والتجديد. وهذا العامل هو الذى يخالف اليوم بين الأدب فى مصر وبينه فى الشام والعراق. فالطبيعة المصرية تكاد أن تكون نائمة: فالجو معتدل فى جميع الفصول لا يكاد يختلف. وحقول الوادى الخصيب لا تعرى من الزهور والزروع، والسماء السافرة والصحراوان الوسيعتان لا تكاد مناظرهما تتغير. فاذا لم تكن طبيعة بلادنا نائمة فهى على الأقل مسالمة، لأنها لا تزعجنا بالزلازل العنيفة، ولا تهزنا بالعواصف الرعن. ولا تخزنا بالبرد القارس والحر اللافح. فطبعت أهلها على الوداعة والفكاهة والبشاشة والكسل والمحافظة على القديم من العادات والأخلاق والآداب فلا تتطور هذه الأمور فى مصر الا بمقدار. ولذلك تجد شعرنا منضد اللفظ جيد السبك بطىء التجدد هادىء الاسلوب لين العطف لا يأخذ الأمور الا بالملاينة والرفق. بينما تجد الشعر فى الشام شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الاساليب لتعدد المناظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة ونشاط الحياة. وهو فى العراق قوى أبى ثائر ساخط متوثب منتشر على ألسنة الخاصة والعامة لالتهاب المخيلة وتوقد الشعور وصفاء الحس من افراط الطبيعة فى الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على كثرة السكان.

على أن هذا العامل قد أخذ يضعف منذ أواسط القرن الماضى لسهولة المواصلات وكثرة المخترعات وانتشار المدنية. فيستطيع الانسان ان يعيش فى آسيا وافريقا كما يعيش فى اوربا. وسيزداد ضعفاً فى المستقبل دون أن يمحى ويبيد.

ومنها (خصائص الجنس) فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان فى المذهب والخيال والغرض، وشعر ابن الرومى يختلف عن شعر ابن المعتز وقد نشآ فى بلد واحد وعصر واحد. لأن الجنس الآرى أميل الى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق، والجنس السامى لذكاء قلبه وحدة خاطره يفهم الشئ فى لحظة، ثم يلخصه فى لفظة،

فهو أميل الى التعميم والاجمال والبساطة .

ومنها (دوام الحرب بين جنسين أو أمتين لفتح بلاد أو صد عاد أو تحرير وطن) . فان هذه الحروب تمخض عادة عن أبطال ينمون فى الخيال ، ويعظمون فى الصدور ، ويكبرون فى الزمن ، حتى تنسب اليهم الخوارق . وتخلع عليهم المحامد ، فتسير بذكرهم الرواة ، وتتحدث بأفعالهم القصاص ، وتنتقل شهرتهم من فم الى فم ومن جيل الى جيل ، وهى فى خلال ذلك تتسع وتفيض حتى تصبح سيرهم لدى الشعب حديثاً وطنياً يجب أن ينشر ، وتراثاً قومياً يحرص على أن يزيد . فيقيض الله لهذه السير المتجمعة على طول الدهور شاعراً سمح القريحة فينظمها بأسلوب شائق ونمط جميل ، كذلك دارت الالياذة الاغريقية على حروب اليونان لأهل طروادة . ومهابهاراته الهندية على الحرب التى نشبت بين نيدهو وبنى كزو ، والشاهنامة الفارسية على تاريخ الاكاسرة ووصف الحرب التى اشتعلت بين أهل ايران وأهل طوران ، وقد كانت تلك الحروب مفخرة الفرس الاولين ورمزاً للخلاف الدائم بين الهى الخير والشر « وكذلك دارت أغانى رولان الفرنسية على حروب الفرنج لعرب الأندلس . وهذا هو الشعر القصصى Epique أو الملاحم Epoupé الذى خلا منه الشعر العربى لأسباب لا يتصل ذكرها بموضوع اليوم » . على أن عامل الحروب قد أثر فى النثر العربى والشعر العامى وان لم يؤثر فى الشعر الفصيح . فان نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بنى هلال والأميرة ذات الهمة إثارة للنفوس وتحميساً للشعب وتفريجاً من الهم .

ومنها — طبيعة العمران وتوزع الثروة وما يتصل بذلك من حال الاجتماع — فان تقدم الحضارة ورخاء العيش ونماء الثروة تؤثر فى الذوق ، وتزيد فى الصور ، وتساعد على نشر العلوم ، وتنوع فى معانى الشعر وأساليب الكتابة . وشاهد ذلك أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ منذ خلافة عثمان الى أواخر القرن الاول للهجرة تدفق أهلها فى اللهو وعكفوا على الغناء وألقوا أزمتهم فى يد الصبابة . وانقطع شعراؤها الى الغزل فافتنوا فيه وتصرفوا فى معانيه وأغفلوا سائر أنواع الشعر الاخرى كعمر بن أبى ربيعة وجميل بن معمر وكثير عزه . وشاهد آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية فى الفنون الادبية هو شيوع البذاء والفحش فى شعر بعض البغداديين على عهد الرشيد والمأمون . فقد حدث شيء من ذلك فى الجاهلية وفى العصر الاموى حين كان الفرزدق وجرير ومن لف لفهما يتجاوبون بالفحش ويتهاجون بالبذاء . الا ان ذلك لم يكن مقصوداً لذاته ، وانما كان يقال هجاء للعدو وسباباً للخصم . اما الفحش فى شعر أبى نواس ومطيع بن اياس وحسين الضحاك وابن سكرة الهاشمى وابن الحجاج فقد كان صادراً عن خلق وناقلا عن طبع ومعبراً عن حالة . فالشعراء يقولونه ويفعلونه ، وأهل البيوتات وذوو المثالة يسمعونه ولا ينكرونه . فبما ذا نعلل ذلك الفساد الذى نال الطباع العربية الحرة فجعلها تمتهن الكرامة وتلقى شعار الحشمة ؟ ؟ اذا عللناه بمفاسد الترف حين تطغى الحضارة ويثور البطر كان هذا التعليل وحده غير فاصل ولا مقنع . فان أكثر أمم التمدن الحديث اليوم قد غرقوا فى اللهو وشرقوا بالنعيم وامعنوا فى الخلاعة ، ثم لا تجد النوابغ من شعرائهم وكتابهم يجرأون على ان ينعوا على أنفسهم بالفواحش أو يجهروا فى كتبهم بالفضائح ، وناهيك بما حدث لفكتور مرجريت حين نشر قصة لاجرسون .

انما الاشبه بالحق ان هناك سبباً آخر يساعد هذا السبب وهو كثرة الرقيق ، وتأثير الرقيق انما حدث من جهتين : اولاهما قيام العبيد على تربية الاحداث فى كرائم الاسر ، وفى كثرة العبيد دناءة فى الطباع ووقاحة فى القول فافسدوا النشء وعودوهم هجر القول وفحش الحديث ، وأخراهما اقحام الجوارى والسرارى خدور العقائل فاعدينهن من أخلاقهن بالمجانة ، فسقطت المرأة من عين الرجل فاخذها بالعنف وضرب عليها الحجاب وأقام عليها الخصية على عادة الفرس واقصاها عن تربية الولد وتدبير البيت واتخذها للمتاع واللذة ، فكان من ذلك ان فشت فى الخاصة اخلاق العبيد والاماء فتنادروا بالفحش وأكثروا الشعر فى الاحماض والمجون(١) وإليك شاهداً آخر على تأثير الاحوال الاجتماعية والامور المادية فى فنون الآداب : ظهر ادب العامة أو الشعر باللغة العامية فى بغداد والاندلس فى عصر واحد ، ففى بغداد ظهر المواليا على لسان صنائع البرامكة من العامة ، وظهر نوع آخر ذكره ابن الاثير صاحب المثل السائر قال : (بلغنى ان قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل فى شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك فى كلام موزون على هيئة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئا منه فوجدت فيه معانى حسنة مليحة وان لم تكن الالفاظ التى صيغت بها صحيحة) ولكن الشعراء والادباء استخفوا به واحتقروه فلم يقلدوه ولم يدونوه

(البقية على صفحة ٢٥)

(١) وهناك سبب ثالث لكثرة الشعر المجونى فى هذا العصر هو أن الشعراء ما كانوا يعدون أشعارهم للنشر كدأبنا اليوم وانما كانوا يقولونه فى مجالس الخاصة فتذيعه الألسنة ويدونه المؤلفون فلو انهم كانوا يكتبون للجمهور لتحرجوا من أكثر المنشور .

من طرائف الشعر

تطور في الجماد

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

ما حياة قديمها غير باد / لك الا تطور في الجماد
انها تبتني لها في نظام / كل ما يقضي حاجها من عتاد
واذا ما الجماد رثّت قواه / ذهبت كلها الحياة بداد
وهي ليست اذا نظرت اليها / في جميع البقاع غير جهاد
ولقد يهلك الذي يتوقّى / ولقد لا يعيش أهل الحياد
ولدتها الأرض الكريمة بكرا / وسقتها السماء درّ العهاد
ليس منا الأجساد بالروح تحيا / انما يحيا الروح بالأجساد

....

انما الأرض وهي ما نحن نسعى / فوقه بين رائح أو غاد
كوكب مظلم يطوف من الشمـ / ـس حثيثاً بكوكب وقاد
كفراش يدور حول سراج / واهج ما لزيته من نفاد
وعلى وجهها نهار وليل / فهي لا تستغني عن الأضداد
كل ما في الوجود فهو لعمري / من نواميس الكون في أصفاد
ولعل الزمان في دوره يجـ / ـمع بين الآزال والآباد

....

وكأن المجرّ نهر مديد / وردته من النجوم صواد
وكأن الوجود فاض على الشطـ / ـطين اذ عبّ سيله في الوادي
ووراء الحجا شموس تعاني السـ / ـبح في لا نهاية الابعاد
وأحاطت بما هنالك أسرا / ر لعيني تجللت بسواد
من شداد الغموض فيها يحار الـ / ـعقل والعقل بعض تلك الشداد

....

جل كون قد حفّت باللاتناهي / عن شبيه له وعن أنداد
أترى أن ما له قدم في الـ / ـكون ذو حاجة الى إيجاد
عالم يختفي وآخر يبدو / والذي يختفي عتاد البادي
وفساد يجيء من بعده كو / ن وكون يجيء بعد فساد
ليس موت الآباء إلا ضماناً / لحياة الأبناء والأحفاد

....

أنا في جوهري قديم على الأر / ض وإن كان حادثاً ميلادي
أنا جزء من عالم ما له من / آخر ينتهي به أو نفاد
ليست الأرض غير قبر مُوارٍ / لرفات الآباء والأجداد
قل لمن طال في التراب كراهم / هل لكم يقظة وراء الرقاد؟
غيّر الدهر كل عضو بجسمي / غير قلب في الحب لي هو هاد
لم تكن منيَ الصبابة في شيـ / ـخوختي غير جمرة في الرماد
ولقد حاقت بي المصائب تترى / من أناس عاشرتهم في بلادي
ولمن في حياته خالط النا / س كثيراً أحبة وأعاد

....

أيّ ذنب لي إن تباعدت الشقـ / ـقة بين اعتقادهم واعتقادي؟
كلما خالف الجماعة في الرأ / ي جريء رموه بالالحاد!
ثلة منهم العيون تريني / ما تكنّ الصدور من أحقاد
عدّني ان أردت في سعداء الـ / ـقوم أو عدّني من الأنكاد
انني في جميع ما أنا آت / مكرَه ليس في يديّ قيادي
أنا هذا ولست أقوى على تغـ / ـيير ما في خلقي أو استعدادي!

....

أنا بالشعر وحده متسلٍّ / انه كل طارفي وتلادي
واذا وافتـه المنيّة قبلي / فاحفروا حفرة له في فؤادي
واذا متّ قبله فهو يرثيـ / ـني لو ظل حافظاً لودادي

....

أيها الناقد المهين لشعري / أنت ما بالنزيه في النقّاد
لا تحقر بنات فكري فتلكم / كل ما قد خلّفت من أولاد
حان ذاك اليوم الذي ليس توري / فيه ناراً اذا قدحت زنادي
ما ألذ الحياة لو هي دامت / غير أن المنون في المرصاد!
حبذا عهد سالف لم أكن فيـ / ـه لغير الجمال بالمنقاد!

مزايا الحجاب

للدكتور محمد عوض محمد

رُويداً! أنحزَن أم نطربُ؟
فذي قصة شأنها أعجبُ:
فتاة من الزنج تهوى الرجالَ
وعنها رجال الورى ترغبُ
قضت زهرة العمر تبغي الحليلَ
فما جاءها خاطب يخطب

وقد صدَّ عنها وَوَلَّى الفِرَارَ
شبابُ بنى الزنج والأشيَبُ
ونفَّر منها بنى جنسها
مُحَيَّا لها كالح مُرْعب
وصوت وليس كصوت الكنار ،
ولكنه البوم إذ تنعب
وأنفٌ مَنَاخِرُه كالجفان
ذباب الملا حوله تلعب
ومن مِشفَرٍ فوقه مِشفَر
كعقربة فوقها عقرب .
....
وإذ يئست من بنى قومها
وعزَّ لها فيهم المطلبُ
أتت أرض مصر ملاذ الغريب
وحيث لكل امرىء مهربُ
وألقت عصاها وقالت : « هنا
سأسعى لادراك ما أرغب »
وقد أعجبت بنظام الحجاب
وما فيه من حِكَمٍ تُعْجِبُ
فقالت : « حمدتك ربَّ الورى ،
لأن الوجوه هنا تحجب
وَيَسْدُلُ كل النساء النقابَ
اذا ما رقيب أتى يرقب
فلا يعلم الناس ما تحته
أظبيٌ من الغيد أم ثعلب
وهل وجهها مشرق فى النقا
ب أم غيهب فوقه غيهبُ ؟
وهل ساقها فوقها جورب
أم الجلد من طبعه جورب ؟
وما لا تراه عيون الأنام
فأنفسهم نحوه تجذب . »
....
وقد صدقت : فرآها فتىً ،
وأقبل من خلفها يدأب
رآها فأعجبه قدُّها
وقد يسحر القدُّ أو يخلب . !
....
فقال لها : « ياحياتى : ارحمى
فتى صادق الحب ، لا يكذب . »
فكان السلام وكان الكلام ،
وكان القران وما يعقب
....
وراحت بضاعتها وانثنت
ومُجْدِبُها مُمْرِعٌ مخصبُ . . .
وكم سلعة كسدت سوقها
وفى أرض مصر لها طُلَّبُ !!

لقاء !!

للشاعر الشاب على محمود طه المهندس

طال انتظارك فى الظلام ولم تزل   عيناىَ ترقب كل طيفٍ عابر
ويطير سمعى صوب كل مُرِنَّة   فى الأفق تخفق عن جناحىْ طائر
وترفُّ روحى فوق أنفاس الربا   فلعلها نَفَسُ الحبيب الزائر !
ويخفُّ سمعى إثر كل شعاعة   فى الليل تومض عن شهابٍ غائر
فلعلَّ من لمحات ثغرك بارقٌ   ولعلها وضح الجبين الناضر !
ليلٌ من الأوهام طال سهاده   بين الجوى المضنى وهجس الخاطر
حتى اذا هتفت بمقدمك المنى   وأصختُ أسترعى انتباهةَ حائر
وسرى النسيم من الخمائل والربا   نشوانَ يعبق من شذاك العاطر
وترنم الوادى بسلسل مائه   وتلت حمائمُهُ نشيدَ الصافر
وأطلَّت الأزهار من ورقاتها   حيرى تعجَبُ للربيع الباكر
وجرى شعاع البدر حولك راقصاً   طرباً على المرج النضير الزاهر
وتجلَّت الدنيا كأبهج ما رأت   عينٌ وصورها خيال الشاعر
ومضت تكذبنى الظنون فأنثنى   متسمعاً دقات قلبى الثائر
وإذا بنا فى الروض تملأ خاطرى   سحراً وأملأ من جمالك ناظرى !
متعانقين على الزهور ونحن فى   شكٍّ من الرؤيا وحلمٍ ساحر
غبنا عن الدنيا وغابت خلفها   صور لماضٍ لا يغيبُ وحاضر

(البقية على صفحة ٢٢)

في الأدب الشرقي

الادب الفارسي والادب العربي

للدكتور عبد الوهاب عزام
الاستاذ بكلية الآداب

٢

ولا ننسى بعد - أن اللغة الفارسية بقيت لغة الدواوين المالية في ايران حتى زمان عبد الملك بن مروان.

ولا ريب أن اللغة الفارسية بقيت لغة التخاطب في ايران بين العامة على الاقل، ولاسيما في القرى والنواحي البعيدة، فانا قد وجدناها منذ القرن الرابع ترتقي الى أن تكون لغة آداب؛ واللغة لا تموت جملة واحدة ولا تخلق جملة واحدة على أن كثيراً من الدلائل يثبت انها كانت لغة الكلام في هذه الفترة أي قبل عصرها الادبي الحديث. وقد انتقلت منها كلمات كثيرة الى البلاد العربية مع النازحين من الفرس وتأثرت بها لهجات بعض العرب.

فرسل عبد الملك بن مروان الى المختار بن أبي عبيد حينما جاءوا معسكر ابن الاشتر لم يسمعوا كلمة عربية، وعبد الله بن زياد وهو أمير عربي كانت فيه لكنة فارسية (أخذها من زوج أمه) — والفرس الذين عرفوا العربية لم يخلصوا من لغتهم ولهجتها — وقد روى الجاحظ أن الحجاج قال لنخاس فارسي: أتبيع الدواب المعيبة من جند السلطان؟ فقال: «شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مدائنها وكما تجيء تكون». قال الحجاج: ويحك ماتقول؟ فقال بعض من كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون الينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها. وأبو مسلم الخراساني على فصاحته التي جعلت رؤبة ابن العجاج يقول ما رأيت أعجمياً أفصح منه — كان لا يستطيع النطق بالقاف — وقد روى المؤرخون أن ابراهيم الامام حينما أوصى أبا مسلم قال له: وان استطعت ألا تبقى في خراسان لسانا عربيا فافعل — مما يدلنا على أن لغة الجمهور هناك كانت فارسية. ونجد الشاعر العماني يتملح بذكر الألفاظ الفارسية في مدائح الرشيد

ويحدثنا الجاحظ أن لغة أهل البصرة بل لغة أهل المدينة كان بها كثير من الكلمات الفارسية في أيامه، مما يدلنا على بقاء الفارسية وتأثيرها البعيد. ويحدثنا أيضاً أنه سأل خادما له الى من أرسل هذا الغلام؟ فقال الى أصحاب السند نعال: يعني النعال السندية.

وأمثال هذا في كتب الأدب كثيرة. ولأمر ما ثار النزاع منذ أيام أبي حنيفة على قراءة القرآن بالفارسية. ثم بابك الخرمي كما يؤخذ من الفهرست كان لسانه متعقداً بالأعجمية، و(بهآفريد) الفارسي المتنبي على عهد أبي مسلم لما أراد أن يضع لأتباعه كتابا وضعه بالفارسية. وأنتم تعلمون ما دخل العربية من الفارسية لا سيما في أسماء الطعوم والاثاث. هذه جملة تثبت أن اللغة الفارسية لم تمت في هذه الفترة ان كان هذا في حاجة الى الاثبات.

وأما الفرس أنفسهم فقد خلطهم الفتح والاسلام بالعرب، أي خلط، فالقبائل العربية انتشرت في الأرجاء الفارسية، والفرس انتقلوا الى البلاد العربية أسارى أو مهاجرين طلباً للرزق أو العلم أو المناصب. فالمدينة على نأيها كان بها فرس، وهم قتلوا هنالك عمر وسعيد بن عثمان بن عفان.

وسرعان ما تعلم الفرس العربية وشاركوا في العلوم الاسلامية. ولكن كان للفرس قبل قيام الدولة العباسية حال تختلف عن حالهم بعدها كل الاختلاف.

كانت دولة الأمويين عربية وقليل من غير العرب من سموا فيها الى الدرجات العالية. وكان العرب، لأنهم أصحاب الدين والدولة ولأنهم الذين أقاموا الملك ونشروا الدين، يرون أنفسهم أجدر بالرياسة وأولى بالشرف على ما كان فيهم من الاعتداد بأنفسهم والفخر بأنسابهم منذ أيام الجاهلية. فسخط الفرس من أجل ذلك عليهم، ولكن الفرس لم يكونوا قد أفاقوا من دهشة الفتح الاسلامي ولم يكونوا قد تمكنوا في الاسلام واللغة وامتزجوا بالعرب امتزاجا يمكنهم من منافسة العرب، وما كان العرب قد ضعفوا وتغيروا وتفرقوا في الأقطار. بقي الفرس ساخطين فاستعان بهم الثائرون

على الأمويين ، فكانوا عونا للمختار بن أبي عبيد ولعبد الرحمن بن الاشعث . فكان جيش المختار من الموالى إلا قليلا . وقد عتب العرب عليه اذ استعان بالعتقاء من الموالى ثم أعطاهم حظهم فى الغنائم . ولما قال رسل عبد الملك لابن الاشتر : أجئت تقاتل جيوش الشام بهؤلاء ؟ أجاب ما هؤلاء إلا أبناء أساورة الفرس .

واذا نظرنا الى أن جيش المختار كان أول من ثأر للحسين بن على وقتل من قتله عرفنا أحد الأسباب التى جمعت بين التشيع والفرس منذ أمد بعيد . فقد كان العلويون والفرس سواء فى كراهة الامويين فتحابوا .

جاءت الدعوة العباسية وقد تهيأت الأسباب ليأخذ الفرس مكانهم فى الأمة الاسلامية فكانوا أخلص دعاة هذه الدولة واليهم يرجع الفضل فى إقامتها . وقد رأى نصر بن سيار فى هذه الدعوة خطرا على العرب والاسلام فقال فيما قال :

تعزى عن رحالك ثم قولى   على الاسلام والعرب السلام

كانت الدعوة العباسية خليطا من الدين والعصبية الفارسية فأبو مسلم كان فارسيا ومسلما غيورا مخلصا . وقد أسلم من أجله كثير من دهاقين الفرس . وهو الذى قتل المتنبى الفارسى سر (به آفريد) حين انتهز فرصة الدعوة فقام يحيى الزردشتية : وكان أبو مسلم قد دعاه من قبل فأسلم وسود . هذا المزج يتمثل حتى فى تسمية أهل خراسان الرماح التى خرجوا بها لنصرة العباسيين : كافر كوب ـ أى مضارب الكفار فهو اسم مركب من كلمة عربية متصلة بالدين ومن كلمة فارسية . ومما يتفكه به هنا قول بعض الشعراء :

وولهى وقع الاسنة والقنا   وكافر كوبات لها عجر فقد

بأيدى رجال ما كلامى كلامهم   يسموننى مردا وما أنا والمرد ؟

ومهما يكن فلا أخال البيرونى قد أخطأ حين سمى الدولة العباسية « دولة خراسانية شرقية » .

كان للدعوة العباسية وما عقبها من قيام الدولة ـ نتائج كثيرة . وانما يعنينا منها ما يتعلق بالفرس . فقد انتعشت الآمال فى نفوسهم . ومكنت لهم فى الدولة وخلطتهم بالعرب خلطا تاما ـ وكان من مظاهر هذا الانتصار فى بلاد الفرس ظهور دعوات دينية جديدة وثورات : (به آفريد) انتهز الفرصة لوضع دين قريب من الزردشتية . فاعجله أبو مسلم وقتله . وقد أعجب الفرس بأبى مسلم أيما اعجاب . فلما مات أنكر المسلمية موته وقالوا انه اختفى وسيجىء مهديا من بعد ـ ومنهم من قال أنه نبى بعثه زردشت وإنه لم يمت كما لم يمت زردشت . وقد دعا الى هذا داعية فى بلاد الترك يعرف باسم اسحاق التركى ولكنه فارسى . وقام صديق من أصدقاء أبى مسلم اسمه سنباذ يقول : ان أبا مسلم اختفى فى صورة حمامة بيضاء . ثم يعلن أنه سيذهب لهدم الكعبة انتقاما لصديقه ، وقد جمع حوله زهاء مائة الف ولكن ثورته لم تلبث طويلا ـ وتلت ذلك ثورات يوسف البرم والمقنع الخراسانى وعلى مزدك ، وبابك الخرمى ، وأكثرها مصحوب بذكرى أبى مسلم . ثم جاء القرامطة وفعلوا ما فعلوا وكان منهم ابن أبى زكريا الذى شرع لهم أن من أطفأ النار بيده قطعت يده ، ومن أطفأها بفمه قطع لسانه وهذا من أثر الزردشتية . كل هذه مظاهر تحتاج الى شرح واستقصاء ولها دلالتها على بقايا العصبية الدينية والجنسية فى نفوس الفرس .

هذا فى بلاد الفرس . وأما أثرهم فى سياسة الدولة وفى حاضرة الاسلام بغداد فقد كان للفرس الرجحان على العرب عند الخلفاء منذ قيام الدولة . وقد بلغ الأمر غايته حين تنازع الأمين والمأمون . فكان المأمون فى مرو من أقصى خراسان أشبه بخليفة فارسى . وقد أعانه الفرس على حرب أخيه الذى كان يعتز بالعرب .

وروى أن أول شعر فارسى نظم فى مدح المأمون كان إذ ذاك .

فلما غلب المأمون تمت الغلبة للفرس ، ثم استمروا مسيطرين على الخلفاء حتى أديل منهم للأتراك المعتصم : حتى اذا قامت الدول الفارسية ملك بنو بويه بغداد الى أن كان طور السلطان التركى فأديل منهم للسلاجقة .

ساس الفرس الدولة على قواعد الساسانيين ، وقلد الخلفاء وغيرهم الفرس فى ملابسهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم ؛ أمر الخليفة المنصور أن تلبس القلنسوة الفارسية . واتخذ هو ومن بعده الحلل المذهبة على الأساليب الفارسية ، وقد أبقى الزمن من نقود الخليفة المتوكل ما يظهر هذا الخليفة فى مظهر فارسى كامل ـ ومن الكلمات الجامعة فى هذا ما قاله المتوكل حين أراد اصلاح السنة المالية ورد النيروز إلى مكانه من العام فاحضر الموبذ ليستعين به . فقال الخليفة . قد كثر الخوض فى ذلك ولست أتعدى رسوم الفرس . وسأله رأيه فى الاصلاح .

« تتبع . . . »

لقـــاء !!

(بقية المنشور على صفحة ٢٠)

حتى اذا حان الرحيل هتفتَ بى   فوقفتُ واستبقتْ خطاك نواظرى
وصرختُ بالليل المودع باكياً   والدمع يشفع لى وأنت مغادرى
ياليتنا لم نصح منه وليتنا   ما أعجلته رحى الزمان الدائر !

٥

ولقد أتت بعدُ الليالى وانقضت   وكأنْنا فى الدهر لم نتزاور
بدلت من عطف لديك ورقة   بحنين مهجور وقسوة هاجر
وكأنّنى ما كنتُ إلفك فى الصبا   يوماً ولم تك فى الحياة مناصرى
ونسيتَ أنتَ ، وما نسيتُ وإننى   لأعيش بالذكرى ، لعلك ذاكرى !

الخـــلاص

للشاعر الهندى رابندرانات طاغور

من كتاب ظهر حديثا بعنوان «الزورق الذهبى»

ترجمة الأستاذ عبد المسيح وزير

الاستاذ عبد المسيح وزير أحد كتاب العراق القليلين الذين يتتبعون تطور الثقافة الحديثة بشغف ولذة . وهو المترجم الفنى لوزارة المعارف العراقية . وصاحب الأثر الخير فى مصطلحاتها العسكرية وهو معدى أكثر الصحف بالابحاث العلمية والادبية

تجلس العاشقة المنكوبة فى حبيبا الى حديقة أزهار تفتحت عن رائع زهوها . فتجل لمعشوقها الراحل تمثالا من طين يبرز رويداً رويدا فى شبه الصورة المحفوظة فى ذاكرتها .

تتفرس فى التمثال ثم تحدق إلى الماضى فيجول الدمع فى عينيها.

وفى كل يوم يتزل ظل متكاثف يكتنف الصورة المنقوشة فى لوح قلبها . فالرسم الذى كانت تراه بالامس بارزاً جليا تلقيه اليوم متضائلا مموهاً . وكما تطبق الزنبقة وريقاتها ليلا تسدل العاشقة الستار على ذكرى غرامها .

تثور سورة غضبها على نفسها . ويأخذ الخجل مأخذه كله منها . فتعمد إلى التقشف . فتعيش على الثمار والماء . وتنام على أديم الارض .

وكلما دنا التمثال من الكمال بعد عن شبه الصورة المكنونة فى ذاكرتها . ويخيل إلى العاشقة أن ذلك التمثال لا يشبه صورة انسان على الارض . ولكنها تخدع نفسها فتحسبه شبه الحبيب الذى فقدته إلى الابد .

تعبد التمثال مع عبادتها الزنابق . وتوقد حوله سرجا مصوغة من ذهب . فيعبق المكان بالرائحة المنبعثة من زيت السرج . وتتراكم الازهار والشموع يوما فيوما حول التمثال الى أن يختفى .

يتقدم اليها طفل ويقول : « نريد أن نلعب هنا » .

ــ « أين ؟ » .

ــ « بجانب دميتك » .

فتجيبه قائلة : « لن أسمح لقدم بالدنو من هذا المكان » .

ويقول طفل آخر : « نريد أن نقطف بعض أزهارك » .

ــ « أى أزهار تريدون قطفها ؟ » .

ــ « تلك الزنابق القريبة من الدمية الكبيرة » .

فتقول له : « لن أسمح ليد بمس تلك الازهار » .

ويطلب اليها طفل آخر قائلا : « أخرجى ذلك السراج وأنيرى سبيلنا . » فترفض طلب الولد بقولها : « لن ينقل ذلك السراج من مكانه » .

يتوافد الاطفال عليها أفواجا أفواجا . فتنصت الى هذرمتهم، وتشهد توائبهم فى مرحهم وجذلهم . فتستغرق فى التأمل هنيهة . ثم تنتبه من غفلتها مذعورة فتتورد وجنتاها خجلا .

بعد ذلك يفتتح معرض فى المدينة المجاورة

فيزورها شيخ طاعن فى السن ويسألها قائلا :

« ألا ترافقيننى أيتها الحبيبة ! الى المعرض ؟ » .

« انى لا أستطيع ذلك » .

وتهرع اليها فتاة تناديها قائلة : « هلمى بنا الى المعرض ! » .

« لا أتمكن من مرافقتك . لانى لا أستطيع الاستغناء عن لحظة أقضيها فى سبيل ذلك » .

ويمسك طفل بهدب ثوبها متوسلا اليها بقوله : « خذينى معك الى ذلك المعرض العظيم » .

ولكنها لا تستطيع الانقطاع عن تأمل منية قلبها طرفة عين .

وفى جنون الليل تسمع صوتا كهدير الرعد . لان مئات الزوار وألوفهم يجوزون القرية فى طريقهم الى المعرض .

وعندما تفيق من نومها يسكت وقع أقدام الزوار تغريد الطيور . فتشعر برغبة فى الذهاب الى المعرض ، ولكنها تتذكر آنئذ أنها لا تستطيع ذلك . اذ ليس فى وسعها أن تهمل عبادة الهها ـ صنم عشيقها الراحل ـ يوما واحدا .

وفى الصباح تبكر مسرعة الى الحديقة .

فأين الصنم . ياترى ؟

يمر الزوار زرافات بالقرية وقد عفا أثر الحديقة واختفى الصنم . أما سيل الرجال والنساء الجارف فلا يقف لحظة عن جريانه ،

تناجى نفسها فى لهف قائلة : « أين حبيبى ؟ »

فيهمس فى أذنها هامس قائلا : « هو بين عابرى السبيل هناك ! »

وفى هذه اللحظة ذاتها يتقدم اليها طفل ويقول لها : « خذينى معك »

« إلى أين ؟ »

« ألست ذاهبة الى المعرض »

« بلى . انى لذاهبة »

فتجوز حديقة الازهار وتنضم الى قافلة الزوار ، لانها وجدت فقيدها المنشود بين الاحياء .

في الأدب الغربي

القرية المهجورة

للشاعر اوليفر جولدسمث

«أوبرن» ياجنة في سفح وادينا   يانفحة السحر من فردوس ماضينا
حيث السعادة للحصاد (١): عافية   تشد منه ، وخيرات أفانينا
وحيث تبدو بواكير الربيع بها   غيسا قبل أن تغشى البساتينا
وحيث يخلف فيك الصيف بهجته   زهرا يرف ، وأطيارا تغنينا

معاهد كنت أغشى في عرائشها   "ثرى بلهنية" (٢) قد طاب أردانا
مقاعد من شباب كله مرح   سقيت فيها الهوى والسحر خلصانا
جررت ذيل شبابي في خمائلها   تيها ، ومليت فيها اللهو ألوانا
حيث السعادة فيها وهي وادعة   تعز من كل شيء فوقها هانا

لكم وقفت لأستملي مناظرها   واملأ العين سحرا جد مختلس
أشاهد الكوخ في أظلال أيكته   والجدول العذب يجري غير محتبس
والمح البيعة الزهراء مشرقة   من سفح رابية في دجنة الغلس
أصغي إلى الليل والطاحون صاخبة   والطير تشدو بصوت ناعم الجرس

هناك في دغل هذا الدوح كم أنست   فيه الطفولة مغنى من مغانينا
كانت مطاف الهوى في طيب عزلتها   حينا .. وكانت مطافا للأسى حينا
كم حمل النسم من أطرافها عبقا   تساجل الشيب أو همس المحبينا
وكم حمدنا ليوم اللهو مقدمه   فيها لنحيي بها أصفى لياليها

يوم ترفه عنها النفس مالقيت   من المتاعب في رفق وإبطاء
ويجمع الحاصدون الغر شملهم   في ظل فينانة الأغصان فرعاء
تحويهم حلقات من شبابهم   فيرقصون على المزمار والناء
يناجزون من الألعاب أروعها   والشيب يلحظهم لحظات إغراء

وإن يمل من الألعاب صحبتهم   استأنفوا طارفا في اللهو وانغمروا
كل ينافس في صبر وفي جلد   رفيقه - ليقال الغالب الظفر
وكي تداول في الآفاق سيرته   وينشر الحي ما أبدى فيشتهر
قد استخف بما يلقاه من تعب   والترب يعلو جبينا منه والعفر

بينا ترى سامرا في القوم مغتبطا   يروي النكات لهم والكل مبتهج
يتلو عليهم طريفا من نوادره   حلوا يكاد مع الأرواح يمتزج
ورب ساجية الأجفان فاتنة   ظلت ترانيه منها أعين دعج
وتفهم الأم ماترمى فتحدجها   حدج الملامة في صمت فتنزعج

آها لعهدك ، ياأوبرن ، أذكره   وكيف تنفع ذكرى تبعث الأسفا
هذي المفاتن كانت في ترادفها   توحي إلى قلب أهليك الهوى الشغفا
على خمائلها فاضت مراتعها   سحرا - ورفت على أدغالها طرفا
مفاتن ! أذوت الأيام بهجتها   وصيرتها الليالي للبلى هدفا

«أوبرن» أين تولت من مغانيك   هذي الملاهي وفرت من روابيك؟
لقد تمشت يد العاتي عليك فلم   ترحم قلوب الحزانى من أهاليك
وقد علاك شحوب من تعسفها   ووحشة قد تمشت في مراعيك
بأي حكم زمان صار يحكمها   فرد - وكانت تراثا في أواليك

كانوا جميعا - فأمسى جمعهم بددا   والربع أقوى - وكان الربع مأنوسا
والسهل لم يبق فيه بعد نضرته   إلا بقية زرع كان مغروسا
والجدول العذب لم نبصر تألقه   كما عهدنا - وفيه اليوم معكوسا
لكن سرى وهو بالأعشاب مختنق   يشق مجراه بين الغاب محبوسا

وفي مفارجك الخضراء حل بها   ضيف غريب من الأدغال قد هتفا
هذا هو الرخم يبني وكره ويرى   مستمكنا في ذرى الأغصان مشترفا
وفي طلولك تدوي البوم ناعبة   تنعى بصوت كئيب ماضيا سلفا
آها لعهدك ياأوبرن أذكره   وكيف تنفع ذكرى تبعث الأسفا

هذي خمائلك الخضراء ذاوية   حالت مباهجها . دالت دواليها
توائبت فوقها الأعشاب هائشة   والمحل أصبح ضيفا راعيا فيها
واليوم أهلك في خوف وفي وجل   من بطش منفرد الأحكام طاغيها
قد بدلوا عيش أرض غير أرضهم   وبدلوا ود أهل غير أهليها

تتبع ...

م . ع . الهمشري

(١) أصل هذه الكلمة swain ومعناها فلاح ، لكنا لم نجد في اللغة العربية لفظة موسيقية لها غير فلاح فاستبدلناها بلفظة « حصاد » . (٢) المقصود بها مكان اللهو واللعب

نفسية قطـــة

للكاتب الفرنسى تيوفيل جوتييه

نقلها عن الانجليزية الاستاذ احمد امين

قطتى بيضاء الصدر . قرنفلية الأنف . زرقاء العين. تعيش معى على خير ما يكون الصديق لصديقه . ان نمت نامت تحت قدمى . وان جلست على كرسى أكتب جلست هى على متكئه تحلم . واذا مشيت فى الحديقة تتبعنى، واذا أكلت زاحمتنى. فخالت ـ أحيانا ـ بينى وبين لقمتى.

استودعنى ذات يوم صديق لى ببغاء أحضره بعود من سفره. فاستوحش من منزلى . وشعر أنه غريب. فتسلق القفص حتى أعلاه، ثم جثم ساكنا مرتعدا.

وكانت قطتى لم تر ببغاء قط . فكان مخلوقا جديدا أمام عينها . أدهشها منظره فكانت اشبه شئ بقطة محنطة من آثار الفراعنة . واستغرقت فى التأمل كأنها تستعيد فى ذاكرتها كل ما درسته من التاريخ الطبيعى على سطح الدار وفى حديقة المنزل ؛ وكان ما يدور بفكرها يتجلى فى نظراتها حتى لأستطيع أن أتبين من عينيها خلاصة أفكارها كالو كانت تعبر بقول بليغ ومنطق فصيح . كانت كأنها تقول: «ليس هذا المخلوق دجاجة خضراء» ، ولما بلغت من درسها هذه النتيجة تركت المائدة حيث كانت ترصد الببغاء وربضت فى ركن من أركان الحجرة مبسوطة الذراعين مطرقة الرأس مطوطة الظهر ، كأنها نمر يتربص غزالا ورد الغدير.

كان الببغاء يتتبع حركاتها فى اضطراب . وقد نفش ريشه ورفع ساقه المرتعشة وسن منقاره على إنائه الذى يأكل فيه . وهدته غريزته الى أن هناك عدوا يدبر الكيد له.

ثم أخذت القطة تسدد الى الببغاء نظرات حادة وهو ينظر اليها فاهما حق الفهم ما يجول بخاطرها . فكأنها كانت تقول « لابد أن تكون هذه الدجاجة لذيذة الطعم على الرغم من أنها خضراء » .

وكنت أرقب هذا المنظر باهتمام موطنا نفسى أن أتدخل عند الحاجة .

ثم دنت القطة من الببغاء وأنفها القرنفلى يرتعد . وعيناها تضيقان. وأظافرها تنقبض وتنبسط . وعمودها الفقرى يرتفع وينخفض . وأخذت تمنى نفسها قرب الحصول على طعم لذيذ ، كما يمنى الشره نفسه اذا دعى الى مائدة صفت عليها ألوان الطعام الشهى .

ثم انحنى ظهرها فجأة كما تحنى القوس فى يد الرامى . ووثبت وثبة فاذا هى بجانب القفص . فأيقن الببغاء بما هو فيه من خطر وقال بصوت خافض رزين : « هل أفطرت ياجيمس؟ » . وهى كلمة تعود الببغاء أن يقولها كما علمه سيده .

فأخذ القطة من الرعب ما لا يوصف : فلو أن طبولا دقت . وصحافا كسرت . وطلقات نارية دوت. ما روعت القطة كما روعت من هذه الكلمة ! ارتدت اذ ذاك الى الوراء ، وعلى وجهها أنها غيرت كل آرائها فى هذا الطائر ، وكان يخيل الى من ينظر اليها أنها تقول : « ما هذا طائرا . ان هذا إلا انسان صغير » .

هب الببغاء يغنى بصوت عال . لأنه تحقق أن كلامه خير وسيلة يدفع بها عن نفسه .

نظرت القطة الى نظرة استفهام فلم يقنعها جوابى . فخبأت نفسها فى فراشى ولم تحرك طيلة يومها.

وفى اليوم التالى عاودتها شجاعتها فعاودت الكرة على الببغاء، ولكنها لاقت فى يومها مالاقت فى أمسها ، فاعترفت بهزيمتها وقررت أن تعامل هذا الطائر باحترام كما تعامل الانسان.

العوامل المؤثرة فى الادب

(بقية المنشور على صفحة ١٨)

ولم يأبهوا لاربابه . وحاول أحد الاطباء الادباء ، وهو محمد بن دانيال الموصلى ان يبتكر نوعا جديدا من الادب اقتبسه من العاب خيال الظل فالف كتابا سماه طيف الخيال فحبط عمله

واما فى الاندلس فابتدع عبادة بن ماء السماء القزاز الموشح، وابتكر ابو بكر بن قزمان الزجل . فطرب الناس لهما واعجبوا بهما واقبل امراء القريض وزعماء الادب على نظمهما وجمعهما فنبغ فيهما النوابغ واشتملت على روائعهما الكتب . فما السبب اذن فى استهجان البغداديين لادب العامة وعزوفهم عنه . واستحسان الاندلسيين له وتبوغهم فيه؟ السبب يعرفه المؤرخ الباحث، وهو ان بغداد كانت شديدة الارستقراطية لانها موطن الاشراف وذوى الاحساب والمال والثروة. فكانوا يترفعون عن الشعب ويستخفون بادبه وذوقه وذكائه ، ويجدون من الغضاضة ان يتحلوا بحليته ويجروا على اسلوبه: ولكن الاندلس كانت ديمقراطية غنية كامريكا اليوم . فلم يعتز احد فيها بالنسب لتساويهم فيه . ولا بالثروة لعموم الرخاء فيهم . وحسن توزيع الثروة بينهم ، فكانت منازل الخاصة والعامة متصاقبة . واذواقهم وآدابهم متقاربة . لذلك لم يتأبه الشعراء والادباء عن تقليد الادب العامى وتدوينه .

« يتبع »

بيت الراعى

للشاعر الفرنسى الفريد دفنى

٣ (١)

١) أيفا . من أنت ؟ وهل لك من علم بطبيعتك ؟ أتعلمين لم خلقت وما هو واجبك فى الحياة ؟ أتعلمين أن الله لكى يعاقب الرجل — مخلوقه — على خطيئته الأولى اذ امتدت يده الى شجرة المعرفة شاء أن يكون حبه لنفسه فى كل زمان وفى كل أدوار حياته غرضه الأول. مهموم يحب نفسه مهموم بأن يرى نفسه.

٢) ولكن اذا كانت ارادة الله شاءت أن تسكنى الى جانبه أيتها المرأة . أيتها الرفيقة الرقيقة . ايفا . أتعلمين السر فى ذلك ؟ انما هو لكى يرى نفسه فى مرآة نفس أخرى . انما هو لكى يسمع تلك الأغنية التى لا يمكن أن تصدر الا عنك. ذلك الفيض الالهى الذى يتردد فى هذا الصوت العذب . انما هو لكى تقضى فى أمره وان كنت له أمة . لكى تحكمى فى حياته وان اخضعك لقوانينه .

٣) فى أقوالك المرحة جبروت المستبد . فى عينيك سطوة القوة ، وفى مرآك امارة السلطان ، حتى لقد شبه ملوك الشرق فى أغانيهم نظراتك فى هول وقعها بنزول الموت . كل يحاول جهده ان يقى من احكامك المتسرعة . على ان قلبك الذى يكذب جسارة مظاهرك سريع مايخضع لضربات القدر من غير مقاومة ولا دفاع

٤) لعقلك وثبات كوثبات الغزال، إلا أنه لا يستطيع السير من غير مرشد ولا معين. الارض تدمى قدميه، والهواء يضنى جناحيه وعينه يعشو بصرها عن ضوء النهار اذا سطع لألاؤه. واذا اتفق أن سمت به الفكرة فى دفعة من دفعات حماستها الى مستقر علوى اضطربت بها الرياح(٢) وعجزت عن ان تمسك نفسها من غير خوف ولا ضجر .

٥) ومع ذلك فليس فيك مافينا من خصائص الجبن اذ

(١) فى هذا الجزء وهو خير مافى القصيدة وربما كان خير ما كتب (دفنى) يعود الشاعر الى ذكر الجبيبة وأثرها كامرأة فى الرجل ثم يتطرق الى ذكر الجمال فى الطبيعة ليقارن بينه وبين جمال البشر وجمال الالم الانسانى .

(٢) بها أى بالفكرة وهى تحمل العقل على أجنحتها .

تتردد صيحات المظلوم فى قلبك، ويدق بها نبضه كالارغن فى سكون الكنيسة المطبق، يتأوه متألما كأنه يرجع صوت ألم تلقاه. للهيب الفاظك تتحرك الجماهير، وبدموعك تمحى آثار كل إهانة ونكران للجميل . بيمينك تهزين الرجل فينهض وسلاحه بيده

٦) اليك يحمل ان تنتهى كبريات الشكوى التى تئن منها البشرية الحزينة . عند ما يتضخم القلب بالموجدة نرى هواء المدن يكاد يخنقه كلما دق ، ومع ذلك تسمو تنهداته الى مافوق الدخان الاسود لتنعقد كلمة واحدة نسمعها بوضوح.

٧) تعالى(١) إذن. ماالسماء عندى إلا اطار تحيط بك زرقته. ويغمرك ضوؤه ويحميك جداره ، ماالجبل الا معبدك والغابة قبابه. العصفور فوق الزهرة لا ترنحه الرياح والزهرة لا ينبعث أريجها والطائر لا يجرى أنينه الا ليصفو الهواء الذى تستنشقين. ما الأرض إلا بساط لقدميك الجميلتين كأقدام الطفل.

٨) أيفا : سأحب كل مخلوق ، وسأتأمل فى نظراتك الحالمة التى ستنتشر فى كل ناحية أضواءها المتعددة الألوان فتنشر معها لذتها السحرية وسكونها الضاحك . تعالى ضعى يدك الطاهرة على قلبى الممزق . لا تتركينى وحيداً مع الطبيعة لأننى أعرفها حق المعرفة لكى لا أخشاها.

٩) أراها تخاطبنى قائلة(٢) «ما أنا إلا ذلك الملعب الذى لا تحركه أقدام اللاعبـــين . درجاتى الزمردية وساحاتى المرمرية وأعمدتى الرخامية صاغتها يد الله . هيهات أن أستمع إلى صيحاتكم أو الى تنهداتكم بل ما أكاد أحس بالمهزلة الانسانية التى تمر فوق ظهرى باحثة لها عبثاً عن متفرجين بكم فى السماء»(٣)

(١) تعالى أى ياحبيبتى فهو يعود الى ايفا مرجعه الاخير والتى ينتهى اليها دائما بعد كل شوط من أشواط شاعريته (١) يلاحظ القارئ كيف أن الشاعر بعد أن هاجم حياة المدن فى الجزء الاول ودعا حبيبته الى هجرها للذهاب الى الطبيعة التى وصفها لنا وصفا رائعا يعود فيهاجمها بدورها والواقع أن (دفنى) لم تشغله حياة المدن ومعلوم انه قد قضى حياته منعزلا كانه فى برج من العاج كما أنه لم يكن من عشاق الطبيعة وهو لم يترك المدن طول حياته ولم ير البحر الا فى العقد الثالث من عمره ولذلك كان همه الشاغل الافكار وبخاصة ما تعلق منها بحقائق النفوس ومن هنا كان شعره أقرب الى الفلسفية منه الى أى شئ آخر وهو لذلك يقول بيته المشهور الذى سيراه القارئ بعد قليل «انى أحب جلال الالم البشرى» فهو لا يحب المدن ولا يحب الطبيعة وانما يحب النفس البشرية وما يسمو بها الى الكمال. وأى مهذب أفعل من الالم فى رفع النفوس الى المراتب العليا من الكمال (٢) ليس بغريب أن يصف دفنى السماء بالبكم وهو الحانق على الاقدار حنقا أحسن العبارة عنه بما لا مزيد عليه فى أول قصائد الاقدار المسماة «الاقدار» والتى باسمها تسمت كل المجموعة كما عاد فهاجمها فى قصيدته المشهورة «جبل الزيتون» حيث يحكى جولة المسيح فى جبل الزيتون بجانب بيت المقدس قبل يوم الصلب وكيف ان الله لم يجب عن تضرعاته بغير الصمت بل انا نجد فى خواطره التى

١٠) . فانا أطوى البشر بجانب من غير أن أسمعهم أو أبصرهم كما لا أميز بين أحجار النمل ومسحوق رفات الانسان . لا علم لى بأسماء الامم التى أقلها . يسمونني أمهم وما أنا إلا قبرهم . شتانى بلتهم أمواتهم قرباناً له ، وريعى لا يستمع لصلوات غرامهم .

١١) . لقد كنت قبل أن توجدوا دائماً معطرة وجميلة يوم كنت أترك للرياح شعورى المنحلة ، وأسلك فى السماء طريق المعتاد فوق قب الميزان ذى الكفات الالهية . فلما وجدتم ذهبت وحيدة فى صمت رهيب أعبر الفضاء الذى تتقاذف فيه الكائنات، وأشق الهواء بجبهتى وثدى الناهدين .

١٢) هكذا تخاطبني الطبيعة فى صوت حزين متعال ، وأنا أبغضها فى نفسى وأرى دمنا فى أمواج مياهها ، وجثث موتانا تحت حشائشها تغذى بعصيرها جذور غاباتها . وأقول لعيني اللتين قد تريان فيها جمالا ، حولا نظراتكما الى غيرها ، واسكبادمعاتكما على سواها . ليكن حبكما للمسوف لا تريانه مرتين .

١٣) آه ! ترى مَن سوف يشاهد جمالك ورقتك مرتين أيها الملك الشاكى الذى يتكلم بتنهداته ؟ ترى من سوف يولد مثلك حاملا قبلة كما تحملين فيما ترسله عيناك من بارقات النظر فى ترنحات رأسك المنكس . فى هذا القد المضنى الساكن فى دعة الى فراشه، ثم فى تلك الابتسامة النقيــة التى تفيض بالحب والألم .

١٤) عيشى أيتها الطبيعة ، وعيشى الى الأبد فوق أقدامنا وفوق جباهنا مادامت تلك سنتك : عيشى واحتقرى — ان كنت ربّة حقاً — الانسان ، ذلك العابر سبيل الذى كان من المقدر أن يقوم عليك ملكا ، فانى أحب جلال الألم البشرى فوق ما أحب ملكك ومظاهره الكاذبة . هيهات أن تنالى منى صيحة حب!

١٥) ولكن أنت أيتها السائحة المتهاونة ! أما تريدين أن تضعى رأسك فوق كتفى وتستسلمى لأحلامك ؟ تعالى نشاهد ونحن على مدخل منزلنا المتحرك من مرّ ومن سيمر من البشر . لسوف تدب الحياة فيما يحمله الى الشعر من صور الانسانية عند ما تمتد أمام منزلنا آفاق الأرض الصامتة الى غاياتها البعيدة .

١٦) وهكذا نسير غير تاركين وراءنا فوق تلك الأرض العاقة التى مر عليها أمواتنا من قبل الا شبحنا . سنتجاذب الحديث عنهم عندما تظلم الآفاق، ويحلو لك أن تسلكى سبيلا محوا لتستغرقى فى أحلامك مستندة الى الاغصان الضئيلة باكية حبك العابس المهدد كما بكت (ديانا) على شواطىء تبعها .

محمد عبد الحميد مندور
عضو بعثة كلية الاداب باريس

الدكتور طه حسين

فى الجامعة الأمريكية

سيلقى الدكتور طه حسين خمس محاضرات فى موضوع «الشعر العربى فى القرن الثالث للهجرة» بقاعة المحاضرات بالجامعة الامريكية فى تمام الساعة السادسة من مساء الأيام التالية على النظام الآتى :

المحاضرة الأولى : يوم الجمعة ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣
الحياة الأدبية العربية فى القرن الثالث للهجرة

المحاضرة الثانية : يوم الجمعة ٣ مارس سنة ١٩٣٣
أبو تمام وشعره

المحاضرة الثالثة : يوم الجمعة ١٠ مارس سنة ١٩٣٣
البحترى وشعره

المحاضرة الرابعة : يوم الجمعة ١٧ مارس سنة ١٩٣٣
ابن الرومى وشعره

المحاضرة الخامسة : يوم الخميس ٢٣ مارس سنة ١٩٣٣
ابن المعتز وشعره

ولهذه المحاضرات تذاكر خاصة بثمن قليل وتطلب المعلومات عنها من سكرتارية قسم الخدمة العامة بالجامعة الامريكية بالقاهرة

زكاها فى المجموعة المسماة «خواطر شاعر» . ماهو أبلغ من ذلك فى مهاجمة القضاء بل والتطاول على الله جلت قدرته فقد كان فى بنيته كما ذكر فى احدى تلك الخواطر يتصور رواية يعقد فيها الأشقياء ، أعنى بنيها ، هذه الحياة فى يوم البعث محكمة يحاكمون الله فيها على اساءاته لهم فى الحياة الدنيا كما ذكر فى خاطرة أخرى فكرة رواية يكون محورها ان شاباً ينتحر فراراً من شقائه ثم يأتى امام الله ليسأله عن شأنه لماذا انتحر فيجيبه لا تسألنى لماذا انتحرت بل اسأل نفسك لماذا أشقيتنى . ونحن نجد فى رواية «شاترتون» لفنى نفسه تبريراً بليغاً للانتحار حتى ليخيل الينا انه يزينه ويدعو اليه وان لم يحقق فكرته فيجمع بطله شاترتون بالاله ويقص علينا مثل الحوار الذى أشار اليه فى جريدته ومن يدرى لعل هذه الفكرة كانت موضوعاً لمشروع رواية ثانية تكملة شاترتون

القصص

على هامش السيرة

الفـــداء

للدكتور طه حسين

أصبحت سمراء محزونة كاسفة البال تبدو على وجهها المتجعد وجبينها المقطب كآبة مظلمة، لم تحاول فى هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام، فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتفرت زمزم، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد، ورغبته فى كثرة العدد، ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها، وانصرف اليها عن كل شيء وعن كل انسان. ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات واشتد لذلك حب عبد المطلب لها وكلفه بها، وانصرافه اليها، وتجافيه عن زوجه الأولى تلك التى أضاءت له سبيل الشباب وأعانته على احتمال أثقال الحياة الأولى.

نعم عرفت سمراء ألم الحزن فى هذه الأعوام الطوال من حياتها، ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال، زكية القلب، تعرف كيف تخفى عن زوجها ما يكره، وكيف تلقاه بما يحب.

وكانت توفق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء الى أن تستميل اليها زوجها. وربما اضطرته الى أن ينقطع اليها وقتا ما وينسى زوجه الأخرى الى حين، ولكن يوما أقبل يحمل الى سمراء شراً ليس فوقه شر وألما ليس بعده ألم، أصبح هذا اليوم مظلما، فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها، ذلك انه مضى بموت ابنها الوحيد. فأذاقها مرارة الثكل واليتم والترمل جميعا. فقد كان الحارث لها ابنا تجد عنده قرة العين. وأبا تحس منه العطف وحنو الآباء، وكان هو يجد ألمها. ويعرف أسراره ويجد فى الطب لهذا الألم، فكان يبالغ فى رعاية أمه وحمايتها. وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع الى ذلك سبيلا، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث اليها، يشركها فى جد أمره ولعبه، يستشيرها ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحها. فكان يقوم منها فى أكثر الأحيان مقام أبيه، وكان يعزيها بحبه وبره عما كانت تجد من الوحشة حين يصد عنها زوجها فيطيل الصدود. فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء، ولم تلق الحياة إلا بوجه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظلماً. وقد جزعت سمراء لهذا الخطب واشتد جزعها، وطال. ولكن أى شيء يبقى على الأيام! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدة هذا الجزع وشدته. كما ذهبت بنضرة شباب سمراء، وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب. وأصبحت وقد تقدمت بها السن وامتحنتها حوادث الدهر امرأة مذعنة لحكم القضاء. لا تنكر شيئا ولا يسرها شيء. محزونة ولكن فى دعة! ملتاعة ولكن فى هدوء!

وقد أحست انكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها. وما يجدون من انقباضها عنهم. فجدت ما استطاعت فى اخفاء ما تجد وكتمان ما تحس، واحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين، كنز الذكرى وما تثيره من العواطف وما تهيجه من اليأس. وتركت للناس من نفسها شخصاً عادياً يبتسم حين يبتسمون، ويرضى حين يرضون. ويشاركهم فى أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور.

على أنها كانت تجد شيئاً من الرضى وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً اليها. وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها، كثير الزيارة لها يصفيها مودة خالصة قوية. ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذى يحيي قلوب النساء.

أصبحت سمراء فى هذا اليوم محزونة ظاهرة الحزن، كئيبة بادية الكآبة. أقبل عليها إماؤها الثلاث يحيينها تحية الصباح فردت عليهن تحيتهن رداً فاتراً. ثم جلست وجلسن وأخذت مغزلها وأخذن مغازلهن، وعملت ايديهن فى الغزل وسكتت ألسنتهن عن الكلام. وكانت سمراء تدع مغزلها من حين الى حين وتظل ساكنة واجمة، وربما انحدرت من احدى عينيها دمعة حارة فأسرعت اليها تزيلها بيدها دون ان تقول شيئاً. والاماء صامتات ينظرن فى حزن عميق الى مولاتهن الحزينة، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام. فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن وثقل عليهن ما كن يجدن من ألم وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ورغبة فى الكلام وميل الى تعزية مولاتهن. اجترأت «ناصعة» وكانت أشجعهن قلباً وأطولهن لساناً. لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء، فقالت: لقد أصبحت ياسيدتى على حال

ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد. فقد كنا نراك محزونة كئيبة ولكنك كنت تجاهدين الحزن، تدافعين الكآبة وتتكلفين الرضى، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث حيناً وبالغناء حيناً آخر: تقص عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها، وتغنيك كل واحدة منا بما تعلمت من الغناء في رطانتها الأعجمية. وكذلك كنت تسمعين أقاصيص سورية وأخرى حبشية وأخرى يونانية. وكنت تسمعين أغاني في لغات أجنبية قليلا ما تعجبك ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام في أكثر الأحيان. أما اليوم فلم نرمنك الاحزناً قاتماً. ولم نسمع صوتك العذب، ولم يرعنا إلا هذه الدموع التي تسفحينها في صمت أليم. تكلمي يا مولاتي ابيني ماذا تجدين؟ ماذا أحزنك اليوم؟ تكلمي وأحسني ظنك بنا. فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نبعث في قلبك السرور. نحن إماء ولكننا نساء نجد الحزن كما تجدينه. ونحس اللوعة كما تحسينها. ولعل حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك، ولعل حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا في السرور. ولعلنا ان شاركناك في الحزن والألم جارينا طبائعنا، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها. فليس في حياتنا وان كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضي، وأي شيء يسر أو يرضي في حياة الأمة الغريبة التي لا تملك نفسها! ولا تحس إلا ذل الرق ولا تستطيع أن ترضى حقاً أو أن تسخط حقا إلا اذا خلت الى نفسها، واني لها أن تخلو الى نفسها! تكلمي يا سيدتي ماذا يسوءك وماذا يغشي وجهك بهذا الغشاء الحزين؟ قالت ناصعة ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراء. ولكنها لم تظفر بجواب، وانما رأت دموعاً تنحدر ثم تنهمر ثم تستحيل الى زفرات حارة ونحيب غير منقطع. هنالك محا الحزن ما بين السيدة الحرة وإمائها من فروق. فاسرعن اليها يبدئنها ويرفقن بها. هذه تقبلها، وهذه تمسح دمعها، وهذه تمر يدها على رأسها. وهن جميعاً يبكين لها ويبكين لأنفسهن. وقد هدأت سمراء بعض الشيء. وسكنت نفسها الثائرة الى هؤلاء الاماء الرفيقات فابتسمت لهن في حزن. وشكرت لهن ما أظهرن لها من مودة وعطف، وطلبت اليهن العودة الى ما كن فيه من عمل. وأخذت هي مغزلها وجعلت تديره في يدها ولكن ناصعة لم تلبث أن عادت الى الكلام فقالت وهي تتكلف الابتسام وتتصنع الضحك: ليس يغني عنك الصمت يا مولاتي فانا نعلم ما تسرين كما نعلم ما تعلنين. ولولا خوفنا منك وإكبارنا اياك لقصصنا عليك القصة التي تحزنك وتجري دموعك الحرة على خدك النقي. ولكن أنى لنا أن نبلغ منك هذه المكانة وانما أنت سيدة ونحن إماء! قالت سمراء: كفي عن هذا الحديث يا ناصعة فقد أنسيت اليوم أن بيني وبينكن فرق ما بين السيدة وإمائها. ولست أرى منكن الآن إلا نساء تعسات مثلي. انما نحن أخوات في الشقاء والبؤس، وما ينفعني أني حرة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم محتملة للذل. مذعنة لصروف القضاء! لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أستطيع أن ابرح هذه الدار! والى أين أبرحها! لقد ذهبت غارة بني أسد بأبي وأخي، وأصبحت أمي وأخواتي إماء مثلكن، لا أعرف من أمرهن شيئا ولم ينهض فتيان بني عامر وكانهم للثأر! ليت شعري ماذا يصنع أبو براء باسنته! ماله لا يلاعبها لقد ذهب الموت بأبي وأصبحت أسيرة في يد عبد المطلب. أسيرة لا كالأسرى: يجفوني ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى كما يفعل الأسرى. وانما أحبه ولا أجد عن داره منصرفاً، ها هو ذا قد عاد من رحلته الى اليمن منذ ثلاث. فلما بلغ مكة أسرع الى هالة بنت وهيب فقضى عندها أولى لياليه وأول أيامه لأنها أحدث زوجاته به عهداً. ثم اصبح فانتقل الى نتيلة فأقام عندها يوما وليلة. ثم أصبح فانتقل الى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين، فيلم بهذه الدار إلمامة قصيرة ثم يسرع الى هالة! فما أشد شوقه اليها وقد حدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمة وابرع ما يكونون جمالا. وحدثت أن هالة انكرته حين رأته فقد ودعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر، كأنه لم يتجاوز الثلاثين(١). وقد أنكرته من الغد قريش كلها لما رأت من سواد لمته. ولكنه أزال عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذي حمله من اليمن، والذي يرد الشيب شبابا، والذي اسرعت قريش اليه فاشترت منه واختضب به شيبها فاذا أهل مكة كلهم شباب.

كل ذلك ولم أر عبد المطلب، ولم أحس منه ذكراً لي وحنيناً الي. وماذا يصنع؟ ليس لي شباب هالة، ولا جمال نتيلة، ولا ولد فاطمة! وانما أنا عجوز فانية، يتيمة وحيدة ليس لها أب ولا أم ولا ولد، أنا هذا الحمل الثقيل. الذي يضيق به صاحبه، ولكنه يأبى أن يلقيه ويتخفف منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور.

قالت ذلك وأغرقت في بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث. ولكن ناصعة لم تلبث أن قالت: أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك يا سيدتي؟ انك إذاً لتجهلين كل شيء، ولا تعلمين إلا أقل أمره خطراً. وان عندي من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك ولخفف لوعة الحزن هذه التي تحرق فؤادك الكئيب. لن ترى زوجك اليوم يا مولاتي فهو عنك في شغل. لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه ينكرن سواد لمته ويعجبن بشبابه الجديد. وحين كانت قريش تستبق اليه تشتري منه هذا الخضاب بما أحب من مال، ولكنه محزون منذ أمس، مغرق في حزن لا قرار له، فهو خليق بالرثاء. إنك تحبينه يا سيدتي وستنسين إعراضه عنك. وسترثين له، واني أخشى أن تخفي اليه حين تعرفين نبأه. قالت سمراء في شيء من الجزع بدأ هادئا ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلا قليلا حتى بلغ أقصاه: ماذا تقولين وبم تحدثين؟ هو محزون! هو خليق بالرثاء. لماذا؟

(١) انظر طبقات ابن سعد صفحة ٥٣ ج١ أول قسم أول

ابنى متى علمت بذلك؟ وكيف أخفيته على؟ ما الذى يحزنه؟ ما الذى يسوءه؟ ما الذى يجعله أهلاً للرثاء؟ ما الذى يضطرنى الى أن أخف اليه لأعزيه وأواسيه؟ قولى أسرعى، لا تخفى على شيئا. قالت ناصعة: مهلا يا سيدتى ارفقى بنفسك ولا تذهبى بها فى الخيال كل مذهب. لا بأس عليه فى نفسه، ولا فى ماله ولكنه يمتحن منذ أمس فى بنيه. هونى عليك إن فى هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارثك العزيز. أتذكرين يوم احتفر زمزم فنذر لئن أوتى من الولد عشرة ذكوراً .... قالت سمراء: براهم ليضحين بواحد يا بؤس هذا اليوم! لقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائى كله، عرفت أنه سيستكثر من النساء ورأيت مدية التضحية ممدودة إلى عنق قد تكون عنق ابنى العزيز. منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً لأنى رأيت فى كل واحدة منهن ضرة لى. ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقيما بهذا البيت ما أقام فيه ابنى مفارقاً لهذا البيت ما فارقه ابنى، ومنذ ذلك اليوم لم أر ابنى فى يقظة ولا فى نوم إلا رأيت الموت له ظلا، أتمى حديثك يا ناصعة. قالت الفتاة: لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا وذكر أن أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء براهم بمولد طفله حمزة فاقسم ليوفين نذره. وليضحين بأحد أبنائه وليجعلهم تسعة منذ اليوم حتى تتمهم له هالة أو نتيلة أو غيرهما عشرة أو تزيد بهم على العشرة. ولم يكد يعقد هذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركها بناتها فى الجزع. أشفقت على الزبير وأبى طالب وعبد الله وغيرهم من بنيها.

وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس، وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة وثارت لكل امرأة قبيلتها. وألح الناس على الشيخ: تأبى كل قبيلة ان تكون التضحية منها. ومضى الشيخ فى يمينه فجمع اليه بنيه وانبأهم بنذره فكلهم أقره وكلهم أطاعه وكلهم ألح عليه ليوفين بالنذر ولتقدمن الضحية. وليس لقريش منذ امس حديث إلا هذا النبأ هم يتناقلونه ويكبرونه ويكبرونه وقليل منهم من يقر الشيخ على هذا العزم الفظيع. قالت سمراء وهى مضطربة. ثم قالت الفتاة: ثم اقبل الشيخ ببنيه الى الكعبة مع العصبة فاجال فيهم قداحه فخرج القدح على أحب بنيه اليه. وآثرهم عنده. قالت سمراء وقد سالت من عينيها دمعتان محرقتان: خرج القدح على عبد الله قالت الفتاة: نعم. فاخذ الشيخ بيد ابنه يقوده الى المذبح وفى يده المدية ولكن بناته جميعا وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بنى مخزوم ويستصرخن قريشا كلها ويمنعن الفتى بحياتهن. وأقبلت احداهن الى الشيخ ضارعة ثائرة معا فقالت: اذا كان قلبك قد استحال الى صخر فلا ترق لابنك الشاب ولا لأمه الشيخة ولا لأخواته البائسات. واذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت حتى جعلت للآباء على أبنائهم حق الحياة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان، فدعنا نحتكم فى هذا الفتى الى رب هذا البيت فهو أوسع منك رحمة وأجدر منك أن يضن بهذا الشباب على الضياع، وان يربأ بهذا الدم الذكى ان يراق لنحتكم الى رب هذا البيت فى أمر هذا الفتى، لنقرع بينه وبين هذه الابل الكثيرة التى تسيمها فى الحرم ولنبلغن من ذلك ما يرضى رب هذا البيت.

وكانت قلوب قريش قد تفطرت حزناً وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهى تبكى، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهى تصيح: لأموتن قبل أن تموت. فمازالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً وتخاشنه حينا حتى اضطرته الى ان يقبل تحكيم الآلهة.

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع اقصاه: ثم ماذا؟ قالت الفتاة: ثم لا أدرى تركتهم يتأهبون لاجالة القداح بين الفتى والابل واقبلت لأقص عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق.

قالت سمراء: يا بؤس لهذه الحياة! لا يسعد فيها الناس بخير مهما يكثر كل السعادة، ولا تشقى فيها الناس بشر مهما يعظم كل الشقاء. أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية؟ لو قد عاش لذقت الآن ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك ولكنى كنت أوثر مع ذلك أن يعيش فقد كان يمكن أن تخطئه القداح، وقد كان يمكن ان لم تخطئه فى المرة الأولى أن تخرج على الابل من دونه وقد كنت أستمتع به اعواما، ولكن هلم لا مقام لنا الآن لنسرع الى حيث هم لنشاركهم فيما يجدون. واحسرتاه! إنى لصادقة الحزن! إنى لصادقة الخوف! إنى لشديدة الاشفاق! إنى لشديدة الرجاء، ولكن فاطمة ستظن بى سوءا وستقدر أنى أقبلت غير بريئة النفس من الشماتة، قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ويردها خوفها من سوء الظن، ولكنها أسرعت مع ذلك وأسرع معها إماؤها. ولم تكد تتقدم فى الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً ثم تبينت فى الأصوات فرحاً ورأت على الوجوه بشرا، وعرفت أن القدح قد خرج بعد لأى على مائة من الابل. وان عبد المطلب يؤذن فى الناس أنه سينحر هذه الابل بين الصفا والمروة، وأنها حرام عليه وعلى بنى هاشم، مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطير.

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها وهن سائرات يطفن بالفتى ويحلن بينه وبين غيره من الناس: حتى اذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان احداهما هالة بنت وهيب أم حمزة وزوج عبد المطلب، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب. هنالك أقبلت سمراء هادئة باسمة الى الفتاة فكفكفت من دموعها، وضمتها اليها وقبلت جبينها الطلق، ثم التفتت الى عبد الله وهى تقول: هلم يا فتى فقبل أهلك فمهما تغل لها فى المهر فلن تبلغ هذه الدموع التى ذرفتها حزناً عليك. ثم نظرت الى فاطمة وهى تقول: ألا ترين أنها أحق فتيات قريش أن تكون له زوجة!

طه حسين

الرجل صاحب الكلب

قصـــة مصرية : للأستاذ محمود تيمور

حدثنى الراوى قائلا :

عندما كنت طالبا فى مدرسة الزراعة بالجيزة كنت أتردد فى أوقات فراغى على قهوة صغيرة بالقرب من الشارع العمومى يجرى بجوارها جدول صغير وتتهدل فوقها أغصان شجرة عتيقة . وكنت أعتبرها حلقة الاتصال بين الحضر والريف أو بين المدنية والحياة الساذجة البدائية . فبينما تكون جالسا فى مقعدك البسيط تشرب القهوة فى هدوء وتصغى الى خرير الماء وتشم رائحة النبات اذ بك تسمع دوى ترام أوسيارة ويمتلىء أنفك برائحة البنزين والتراب .

وكان يتردد على هذه القهوة رجل بدين الجسم كروى الوجه بأنف أفطس وعيون صغيرة يلبس بدلا من المعطف حرملة من اللون الأزرق الكالح ويلف رأسه بشال قديم مهلهل . وكنا فى ذلك الوقت على أبواب الشتاء . وكنت ألاحظ عليه مظاهر الجربعة . واعتقدت أنه من أرباب المعاشات الفقراء . وأذكر أننى لم أذهب الى القهوة مرة واحدة ولم أجده . أراه دائما فى ركنه المعهود بجوار باب القهوة منتفخا فى جلسته يدخن النارجيله ويحتسى القهوة ويزعق بين فترة وأخرى على الخادم يصدر اليه أوامره الممضة . يصحب معه دائما كلبا أسود بشع الهيئة من فصيلة الأرمنت . يزعج القهوة بنباحه الثقيل . كان سيده يبالغ فى تدليله والاعتناء به . ويكلمه ببعض كلمات انجليزية بلهجة سقيمة لا تتعدى قوله . . كام هير جيمى كام هير ماى دير (١)

ولا أدرى ما الذى دفعنى الى أن أهتم بهذا الرجل وكلبه وأدقق فى ملاحظتى اياهما . مع نفورى منهما .

وذهبت مرة الى القهوة فوجدت عويسا ماسح الأحذية يتشاجر معه . وكان الرجل يشتم الغلام بصوته العريض الوقح وهو منتفخ الأوداج محمر العين يبصق أمامه بصقات متوالية . ورأيت الكلب ينبح ماسح الأحذية بشدة ويجذب بأسنانه طرف ثوبه . فتحاشيت التدخل بينهما وقصدت الى مكانى بجوار الجدول ومعى كتاب الزراعة المصرية لأذاكر فيه . وجاء صاحب القهوة فحسم الخلاف وشتم عويسا وأرضى الافندى ببعض كلمات لا تخلو من تملق . وترك الكلب ثوب الغلام وذهب الى سيده فنظر اليه مليا وهو يبصبص بذنبه ثم تمدد تحت أقدامه ونام .

وجاءنى عويس يمسح لى حذائى كالمعتاد فمددت له قدمى فى حركة آلية غير ملتفت اليه وانشغل الغلام بالمسح وأنا بالتفكير وبعد برهة خاطبت عويسا ووجهى لا يفارق الكتاب . .

— من يكون هذا ؟

فأجابنى وهو منهمك فى عمله .

— واحد حكيم لا طلع ولا نزل . يدعى أنه كان حكيمباشى فى الجيش فى الزمن الماضى

— والآن ؟

— على المعاش

ثم رفع رأسه الى وقال :

تصور يا بيه أنه يريد أن يعطينى قرش تعريفة واحد فى مسح حذائه ووضع شريط جديد له . وأى جزمة هذه التى مسحتها . ربنا لا يوريك او كذلك ان الورنيش لم يمسها منذ ان كان جنابه فى الجيش . .

ولاحظت على الرجل انه يسارقنا النظر فاردت أن أحول مجرى الحديث ولكننى لم استطع اذ كان عويس قد اندفع يقول :

قرش تعريفه واحد نظير مسحة وشريط جديد . الله الغنى ياسيدى . . هذا خلاف الخدمات التى اؤديها له بدون مقابل . ولو كان شخصا فقيرا لقلنا نخدمه لوجه الله ولكنه رجل عا كم . عا كم تمام .

وسمعت الحكيمباشى يبصق بشدة على الأرض فخفف عويس من حدته وهمس قائلا :

— تصدق بالله ، لو ذهبت الى بيته لظننت انك فى مزبلة أو مربط بهائم ... لم كل هذا والدنيا أخرتها موت . فضك وارد على هذه السيرة . .

وغبت عن القهوة بضعة ايام . وبينما كنت مرة فى الترام منهمكا فى قراءة « البلاغ » اذ شعرت بشخص يدخل العربة - وكانت مزدحمة بالركاب - ويحشر نفسه بين الجالسين وسمعت همهمة استياء من كل ناحية . ورفعت بصرى لأرى من الداخل فوقع بصرى اول وهلة على كلب اسود ضخم بشع الهيئة عرفته على الفور . ورأيت أمام مقعدى الحكيمباشى يمسح وجهه المحتقن المعقد ويشد حرملته على أكتافه ويدفع جاره وهو يدمدم . وتلاقت أعيننا . وشعرت بأنى ابتسم له . وشاهدته يحيينى مجاملة بابتسامة سطحية خاطفة . وبعد لحظات قال لى مندفعا :

— يدفع الواحد منا ستة مليمات لهذه الشركة الملعونة ليحظى بمثل هذه الجلسة المرهقة . نحن آدميون ولسنا بهائم حتى يحشرونا هكذا كأننا فى عربة لحيوانات . لماذا لا يزيدون عربة على كل قطار فى مثل هذه الاقاوت . أقسم بالله ان سوارس الذى تدفع فيه ثلاثة مليمات فقط أحسن ألف مرة من هذا الترام .

---

(١) تعال هنا يا جيمى تعال هنا يا عزيزى

فوافقته موافقة تامة . وأخذت أذم له الشركة بدورى . فظهر على وجهه الارتياح وأخـــذ يناقلنى الحديث بلهجة ودية ومن غير تكلف كأنه يعرفنى منذ أعوام . وقال :

ــ لم تحضر الى القهوة منذ أيام

ــ كنت مشغولا جدا . لقد هجمت علينا الدروس .

ــ إيه يا بنى لو كنت معنا فى الجيش لاستصغرت من شأن مشاغلك .. كنت أنا لا أجد الوقت الكافى لاتناول كوب اللبن فى الصباح .

ــ حضرتك خدمت فى الجيش مدة طويلة ؟

فأجاب بلهجة متزنة وهو يعبث بسلسلة ساعته ..

ــ ٤٥ سنة .. ٤٥ سنة وأنا أعيش فى الخيام وعلى ظهور الجياد . أضمد جروح الجرحى وأعنى بالمصابين . ثم أخرج بعد هذه الخدمة الطويلة العريضة الشاقة بمعاش لا هو فى العير ولا فى النفير ... لا مكافأة ولا يحزنون ..

ثم مال على وهو يبتسم وقال :

ــ ألم تسمع المثل القائل : آخر خدمة الغز علقة .

وكان قد خلا مكان بجواره فنظر إلى كلبه الذى كان ممددا تحت أقدامه وقال له وهو يفرقع باصبعه ..

ــ كام هير جيمى . كام هير ماى دير .

وأشار له الى المحل الخالى . فقام الكلب وبعد أن تمطى وتثاءب فى هيئة شنيعة قفز بجوار سيده والناس يرمقونه بالنظر الشزر . والتفت الى الحكيمباشى وقال وهو يلاطف كلبه ..

ــ لم أر فى حياتى كلبا وفيا كجيمى هذا . انه انسان وليس بحيوان . لقـــد استغنيت به عن البنين فهو ابنى . وعن الخدم فهو تابعى الامين . وعن الحراس فهو حارسى الذى يبذل دمه فى سبيلى . أتصدق أننى لا أعاشر سواه فى منزلى .

ثم نظر الى كلبه وقال :

ــ أوه جيمى أى لاف يو فرى ماتش (١)

وكان بجوارى شيخ معمم فسمعته (يمصمص) بشفتيه ويتمتم قائلا :

ــ لله فى خلقه شؤون !

ووقف الترام على احدى المحطات ودخل العربة محمد افندى زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الايطالى فسلم على فى بشاشة . ثم التفت الى الحكيمباشى وقال :

ــ أهلا أسعد بك . فى غاية الأشواق يا حبيبى

وتحدثنا برهة فى العموميات . ثم رأيت أسعد بك الحكيمباشى ومحمد افندى زكريا يفتحان باب البحث فى المسائل المالية . فسكت وأصغيت لهما . وأخذا يتعمقان قليلا قليلا قليلا فلم أعد أفهم من كلامهما شيئاً . وكانت أمثال الكلمات .. الكامبيو والبورصة وسندات الشركة البلجيكية وأسهم البنك العقارى والرنت الفرنساوى تطن فى أذنى طنينا مزعجا ، وارتسمت على وجه أسعد بك أشد مظاهر الاهتمام فوجدت عينيه تحملقان فى وجه محدثه حملقة الجائع الشره . وطاقتى أنفه تتسعان كأنهما تستجديان الهواء . . . وأخيراً وصلنا الجيزة فسلم أسعد بك علينا ونزل لأنه كان يسكن هذه البلدة . أما أنا ومحمد افندى زكريا فتابعنا ركوبنا الى الأهرام اذ كنا نرغب فى تناول الشاى فى (مينا هاوس) وملت على محمد افندى وقلت له :

ــ ان لصاحبك باعا طويلا فى الأمور المالية .

ــ انه يا عزيزى يلعب بالجنيهات فى سوق المضاربة كما تلعب الأولاد (بالبلى)

ــ وهل يكسب ؟

ــ لم أسمع مرة واحدة أنه خسر .

ومرت الايام وكثرت مقابلتى لأسعد بك فى القهوة وتوثقت بينى وبينه روابط الصداقة . واتضح لى أنه شخص غير مزعج كما توهمت قبل معرفتى اياه . فكان اذا رآنى فى ركنى المعهود منكبا على كتابى أذاكر دروسى احترم عملى ولم يفتح فمه بكلمة . أما اذا لاحظ أننى لا عمل لى دعانى الى الجلوس معه . ولا أذكر أنه أكرمنى بفنجان قهوة . أو قدم لى سيكارة واحدة . أما حديثه فكان سخيفا ولكنه مسل للغاية . معظمه حكايات عن حياته الماضية فى الجيش ونوادر عن كلبه لا تخلو طبعا من مبالغات ومغالطات . وكان اذا تكلم عن كلبه لمعت عيناه بوميض غريب وخيل اليك أنه يتكلم عن ابن وحيد له قد وهبه كامل محبته وحنانه .

وتغيبت بضعة أيام عن القهوة ثم عدت اليها فكان أول شىء لاحظته هو أن أسعد بك غير موجود . ولما جاءنى غلام القهوة سألته عنه فلم يفدنى شيئا . وبعد قليل ظهر عويس ماسح الأحذية . وكان مسرورا يخبط بظهر فرشته صندوقه فسألته :

ــ ما الخبر ياولد ؟

ــ خبر عظيم جدا يابيه . لقد أخذوا كلب أسعد بك فى عربة الكلاب .

ــ ياشيخ !

ــ شاهدت ذلك بعينى رأسى .

ونالنى شىء من الأسف . ولكننى لم أهتم بالأمر كثيرا . واعتقدت أننى سأرى فى الغد صديقى وكلبه يحتلان ركنهما المختار فى القهوة .

(١) أوه ياجيمى . أنا أحبك كثيرا

وبعد انقطاعي بضعة ايام ذهبت الى القهوة فوجدت أسعد بك وبحثت بعيني عن الكلب فلم أجده. وكانت عينا صديقي مربدتين حائرتين ووجهه محتقنا. وسلمت عليه فسلم على في اقتضاب وصمت فلم أشأ أن أثقل عليه. وقصدت الى مكاني وفتحت كتابي وبدأت دراستي ولكنني ما كدت أفعل حتى سمعته يتكلم في لهجة شرسة كأنه يتحدى انسانا أمامه قائلا :

يأخذون الكلب ويطلبون مني جنيها مقابل اطلاق سراحه ! جنيه ! هذا نصب ، نهب ... اخص على دي مصلحة.

وبصق بصقة كبيرة. ثم أتم كلامه ....

— ... مع أني افهمتهم أني حكيم ... حكيمباشي الأورطة التاسعة التي قهرت العصاة في الأبيض ودارفور. رجل مقامي معروف وماضي مفعم بجليل الأعمال. مصلحة دون ! لا تعرف اصحاب المقامات ... اخص ..!

وبصق بصقة أخرى. وكان يتكلم بدون أن يلتفت ناحيتي. ولكني كنت متأكدا أن الكلام موجه الى اذ لم يكن في القهوة غيرنا. فرأيت من باب المجاملة أن أعير حديثه اهتمامي. وقلت :

— جميع مصالح الحكومة بايظة.

فاحتد في كلامه وهو ينظر أمامه دائما وقال :

— الا هذه المصلحة. انهـا ليست بايظة فقط. انها غير موجودة.. أتصدق أنهم يرفضون شهادتي الرسمية بأن الكلب غير مكلوب وأنه ليس من الكلاب الضالة، ويقولون ان الاجراءات يجب أن تتبع مجراها. اجراءات؟ هه !... سأريهم كيف تتخذ أمثال هذه الاجراءات معي ومع كلبي. سأريهم ...!

وضرب بشدة على المائدة والتفت الى هذه المرة وعيناه تشعان باللهيب وقال :

— لقد أرسلت عريضة اليوم الى وزير الحربية لتخلية سبيل كلبي في الحـال.. في الحال.

فأجبته على الاثر.

— حسنا فعلت.

وفي الغد سافرت مع فرقة من طلبة المدرسة في رحلة الى الصعيد. وقضينا هناك أسبوعا كاملا نتنقل بين ربوعه متفرجين على آثاره العظيمة. وفي اليوم التـالي لعودتي الى القاهرة قصدت الى قهوتي المعروفة. فرأيت عويسا جالسا القرفصاء على الارض بجوار احدى الموائد وأمامه صندوقه ينتظر زبائنه. فناديته وسألته على الفور.

— ماذا جرى لكلب أسعد بك ؟

فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— تعيش أنت !

— قتلوه ؟

— منذ أربعة أيام.

ألم يدفع أسعد بك المبلغ ؟

— يدفع المبلغ ! انه يرضى أن يدفع لهم عينيه ! ولا يتجاوز لهم عن الجنيه.

وشاهدت أسعد بك آتيا صوب القهوة يتوكأ على عصاه الغليظة ويسير في ثقل واعياء. ولما اقترب مني ابتسم لي ابتسامة هزيلة وسلم على ثم جلس. ولاحظت على وجهه شحوبا كأنه قريب العهد بمرض خبيث. وأشار الى المقعد الذي أمامه وقال :

— تفضل اجلس

فجلست وبدأنا نتحادث في أمور تافهة. وكانت لهجته مهملة ونظراته فيها بعض الشرود. ولم يتكلم بكلمة واحدة عن جيمي فعلمت أنه لا يريد الخوض في هذا الموضوع. ثم خيم علينا صمت ثقيل فاستأذنت وقصدت الى ركني.

ومنذ ذلك الحين اختلت مواعيد أسعد بك ولم أعد أراه دائما في القهوة كلما ذهبت. وغير عادته في فنجان القهوة السادة الذي كان لا يحيد عنه ولا يزيد عليه واستبدل به بضع كؤوس من العرق. وكان كلما ثارت الصهباء في رأسه اندفع يتكلم في اسهاب ممض وبصوت مرتفع كأنه يصرخ أو يشتم. وكانت موضوعاته دائما لا تخرج عن سبه مصلحة الطب البيطري وسب العالم كله على السواء. كان يقول دائما :

— الدنيـــا كلها نهب في نهب. اخص بلا قرف. ويبدأ يضيفني على شرب الزبيب معه ويقول لي :

— لا تخش ضررا. أنا حكيم. ان الزبيب مقو للدم وفاتح للشهية. أحسن المشروبات كلها.

وأصبح مجلس أسعد بك لا يطاق. فلم أكن انعم معه بتلك المحادثات المسلية. ولم يكن يتركني أذاكر دروسي في هدوء. بل كان دائما يقلقني بصياحه المزعج ويضطرني الى الانصات له وتحبيذ كلامه. وكان اذا رآني مقصرا في الالتفات اليه جاء الى مائدتي ونقل مشروبه اليها واحتل مقعدا بجواري وبدأ يسح بشكاياته وشتائمه.

وحدث مرة أن جاء صاحب القهوة بحساب الشهر ـ وكان من عادة أسعد بك أن يدفع الحساب شهريا ـ فأخذ الورقة من يد الرجل وألقى عليها نظرة عابسة ثم صاح في وجهه :

— مائة قرش؟ جنيه! أما لصوص صحيح! لن أدفع هذا المبلغ ما حييت

ودعك الورقة ورماها في وجه صاحب القهوة. وأراد الأخير ان يتفاهم

معه فى لطف فاقترب منه ومعه الحساب وأخذ يوضح له عدد الطلبات التى طلبها . فدفعه أسعد بك بشدة وصاح ...

ـــ اذهب من أمامى لن ادفع شيئا . كلكم لصوص أولاد كلب .

فاحمرت عينا صاحب القهوة وقال :

ـــ اللصوص واولاد الكلب ياحبيبى هم الذين لا يؤدون ما عليهم :

ـــ اخرس ! أتعرف من الذى تكلمه ؟ أنا اسعد بك حكمباشى الأورطة التاسعة فى الجيش المصرى .

ـــ وماذا يهم ؟ أنا أريد نقودى . ليس هذا الجنيه كجنيه مصلحة الطب البيطرى الذى لم تدفعه انقاذاً لكلبك . هذا جنيه ثمن مشروبات جرتها من محلى ....

ورأيت سحنة أسعد بك قد انقلبت وصارت كسحنة النمر الهائج وقال وصوته يرتجف :

ـــ ماذا تقول يا وقح ؟ جنيه الطب البيطرى ؟ جنيه الكلب ؟ أتظن أننى قد بخلت بالجنيه فى سبيل انقاذ كلبى ؟ اتجرؤ على هذا القول بالعين ؟ انا أرضى أن ادفع مائة جنيه لاجنيها واحدا من أجله .. ولكننى لا ادفع للصوص اولاد حرام ، كلكم تستحقون ضرب الصرم ، ورأيته يدس يده المرتجفة فى جيبه فى حركة شاذة ويخرج ورقة مالية من ذات المائة قرش وينهال عليها تمزيقا فى وحشية غريبة ويقول :

ـــ أتستطيع ان تقول انى لا استطيع أن أدفع جنيها ..

ثم قام وأنشب أظافره فى رقبة الرجل . وقامت بين الاثنين معركة حامية استدعيت من أجلها الشرطة .

وساءت أحوال أسعد بك فلم أعد أراه الا مخمورا رث الهيئة ممزق الملابس . قوى الشبه بهؤلاء المتشردين مدمنى المخدرات الذين تراهم فى الطرق يستجدون المارة . وكان لا يسكت لسانه عن النقود وبالاخص عن الجنيه الذى لم يدفعه انقاذاً لكلبه ، وكان يؤكد لى فى حماس غريب أنه لم يدفع هذا الجنيه نكاية فى مصلحة الطب البيطرى وليفهمهم أنه ليس مغفلا أو ضعيفا . وكان يروى الحكاية لكل من يقع عليه بصره فى القهوة أو فى الطريق وهو يصيح ويهدد ويشتم . واذا لم يجد من يكلمه رأيته يحدث نفسه محتدا وهو يلوح بيده فى حركات شاذة .

وانقلب من شحيح متكالب على المال الى مسرف متلاف لا تعرف يمينه ماتنفقه شماله . وسمعت أنه كثيرا ما يذهب الى مصلحة الطب البيطرى ليفدى الكلاب الضالة ويخرج لها رخصا بمبالغ لا يستهان بها . وكان يحرضنى دائما على التبذير ويقول :

ـــ اصرف وبحبح على نفسك .

وقابلت مرة محمد افندى زكريا الموظف ببنك الكومرسيال الايطالى فروى لى أخبارا مزعجة عن أسعد بك قال : انه يضارب الآن بجنون ويخسر خسائر فادحة .

وحلت الاجازة السنوية وانقطعت عن زيارة القهوة ثلاثة أشهر كاملة . ولما عدت اليها رأيت كل شىء فيها لم يتغير . وكانت مائدتى المختارة فى موضعها بجوار الجدول تظللها أغصان الشجرة العتيقة . فكأننى لم أفارقها الا منذ ثلاثة ايام . واستقبلتنى الوجوه التى أعرفها كل بابتسامته الخاصة . والتفت حولى مشرق الوجه وأنا أقول :

ـــ كل شىء كما هو !

وبغتة قلت لعويس الذى كان يمسح مقعدى فى هرج وسرور ويهيىء نفسه لمسح حذائى ..

ـــ أين أسعد بك ؟

فتوقف عن عمله ورفع بصره الى وقد غابت ابتسامته وانقطع ضجيجه المرح وقال بلهجة قابضة :

ـــ الم تسمع عنه شيئا ؟

ـــ كلا

ـــ لقد ارسلوه الى المارستان . كانت حالة المسكين فى المدة الأخيرة عبرة . وكنت انا الذى أعتنى به .

ـــ ماهذا الكلام ؟

ـــ الحقيقة ما أرويها لك

ـــ وهل يمكن أن أزوره فى المارستان ؟

ومد عويس صندوقه تحت قدمى وبدأ يمسح فى هدوء . وقال فى لهجة غريبة :

ـــ كلا ياسيدى لاتستطيع أن تزوره ... لن تراه أبدا ..

ونكس رأسه ... فنكست رأسى أنا أيضا وبدأت استغرق فى تفكيرى الحزين .

قصـــة عراقية :

تريد أن تحب ... ؟

للأستاذ أنور شاؤول

الإستاذ أنور شاؤول كاتب عراقي وشاعر غزل رقيق يمارس المحاماة ويزاول الصحافة ويصدر مجلة (الحاصد) وهي ارقى المجلات الاسبوعية في بغداد. وهو ثاني اثنين أقاما القصة العراقية على قواعد من الفن الصحيح وله فيها كتاب الحصاد الاول .

(الرسالة)

فرغت من قراءة المقال . وفي هذه المرة لم ترم المجلة بعنف ويأس شأنها كل يوم انما وضعتها بلطف قرب وسادتها ثم مدت يدها تضغط على زر المصباح فساد الظلام.

وفي حلكة الغرفة كانت عيناها مفتوحتين يلتمع فيهما بريق غريب. لم تستلم للنوم لانها كانت تشعر بحاجة ملحة الى الانتباه والتفكير عجبا أيمكن أن يكون شقاؤها اللازم قد أشرف على النهاية فتشرق شمس الغد ضاحكة وتقبل السعادة المفقودة لترتمي بين أحضانها ؟

انه مقال «في الحياة والحب والجمال» لامثيل له فيما قرأته قبل اليوم من تلك الفصول المطولة . انه قطعة من وجد ، فلذة من قلب بل هو حياة مثلى مصغرة طالما حنت اليها بعد نكبتها قبل سنتين . ولكن هذا المقال لم يثر من اهتمامها قدر ما أثار منه كاتب المقال ، ذلك اللوذعي القدير المتفنن ذو القلم الساحر الذى استطاع ما لم يستطعه قبله كاتب من إهاجة الجمرات الكامنة من أعماق صدرها .

فمن هو هذا الكاتب ؟

المقال مذيل بامضاء ولكن الامضاء لا يشير الى شخصية حقيقية انما هو من تلك الامضاءات المستعارة المستكرة . « سمير النجوم » . ومن هو هذا سمير النجوم؟ وضغطت على زر المصباح فتفجرت الأنوار تغمر الظلمة وكانت المجلة في يدها فجلست متكئة على وسادتها وراحت تطالع المقال ثانية . وهي في كل فقرة من فقراته تستمهل النظر فتطلق لافكارها الجامحة العنان. لم تعرف (م) كم مرة أعادت تلاوة المقال في تلك الليلة . ولم يكن ليهمها أن تعرف ذلك . وعند ما دقت الساعة اثنين بعد منتصف الليل تذكرت أنها أوت الى فراشها في منتصف الساعة الثامنة

* * *

و (م) من هي ؟

هي تلك الزنبقة التي ما كاد ثغرها يفتر في الحديقة الغناء فتمتص الندى وتتشرب العصير وتستحم بأنوار الشمس حتى قطعت عنها الطبيعة مجارى المياه فراحت تشكو العطش وتحذر الهلاك ! .

هي الزوجة الحسناء بالامس المترعة الكاس سعادة قدسية ، الارملة البائسة اليوم المتلئة الجوانح شعوراً مريراً علويا ! .

يا للجمال الرائع تلامسه يد الاسى بأصابعها النارية ! يا للقلب الفارغ بعد امتلاء تتسرب اليه الوحشة والحنين بين الذكريات الوامضة الجميلة !

ويا لليالى الشتاء ما أطولها وما أقسى بردها على هذه الحمامة الوحيدة الوادعة !

توفى زوج (م) ولما تمر على زواجهما أكثر من عام تخلف شريكة حياته ولا سلوى لها سوى طفلة في مهدها وذكريات طيبة مشوبة بمرارة الفراق الابدى . من الذي سيبادلها الحديث الحلو ؟ الابتسام ؟ القبلات والعناق ؟ ومن سيشاطرها الحياة شهورها وسنيها ؟!

أحبت وحيدتها شأن كل أم وأفرطت في الحب ولكن هذا الافراط ما كان ليخفف من مصابها بشريك حياتها . ومرت الايام والاشهر وتصرم عام وبعضه . و (م) تستهدف سهام الحياة .

فتألم ذلك الالم الاخرس الذى يجيش في نفس جريح خانته قواه فما استطاع كلاما حتى ولا أنينا ! .

سل الوسادة عما بللها من دمعها الغزير في ظلمات الليل ! سل النجوم عما تصعد اليها من حسرات على أجنحة الرياح ! وسل المرآة الصافية عما صوب اليها من نظرات حزينة ! ومن خلال لآلى الدموع كانت عيناها تنظران بخيلاء كبير الى الجمال المضاع .

ـــ انني مازلت حسناء ... جاذبيتي مازالت ثائرة ... وقلبي الفارغ ... هل سيظل هكذا .. ؟ ولماذا يظل هكذا ...؟

تجول هذه الافكار وأشباهها في رأس «م» فلا تلبث أن ترتمي على كرسي قريب وتجهش بالبكاء . فاذا ما دنت اليها طفلتها تصيح (ماما) انقلبت من البكاء للضحك ومن الاجهاش للقهقهة . ويبقى شيء لم يتغير هو الالم الممض في قلبها الوديع .

***

(أريد أن أحب).. وحي علوى هبط على نفس (م) هبوط قطرات الطل على الزهرة العطشى ولامس كل عاطفة من عواطفها ملامسة لفحة الموقد للجسم البارد المصطلى. ولكن أين من تحب؟ ومن هو؟ وكيف الحصول عليه ؟ .

شاب في مقتبل العمر ، ممشوق القوام ، ضحوك الوجه ؛ براق العينين ؛ جرسي الصوت ؛ محبوب المعشر ؛ مثقف ؛ ذكي ؛ ذلك من كانت تبحث أو تحاول أن تبحث عنه (م) ليملأ فراغ قلبها الفتي .

ولكن أين تجده وبجتمعها من القساوة بحيث يراقب منها الحركات والسكنات ويحصي عليها حتى أنفاسها . طريقها طويلة شائكة فهل تسير وهي حافية القدمين أم تنكص على الاعقاب؟ (أريد أن أحب)

كانت وحيا هابطا ما أن له مرد .

بعد تفكير أيام بلياليها وصلت الى أن بامكانها ان تحب أحد كواكب السينما ، وكواكب السينما كثيرون تتمتع بجمالهم وأصواتهم في السينما الناطق كل أسبوع ، فما عليها الا أن تحب أحدهم مثال روبرت مونتكومري أو كلارك كابل أو موريس شفاليه أو جاك بوكانان أو شارلس فارل أو رامون نوفارو أو أى كوكب آخر فتقبل على اقتناء صوره ومشاهدة أفلامه وقراءة أخباره وتتبع كل أثر من آثاره .

وهى فكرة جميلة تخفف من لواعجها ولكنها لا تطفىء أوار قلبها ! انها فى حاجة الى حب حقيقى لا خيالى . ولتبحث عن أمنيتها فى غير هذه السبيل .

ـــ لماذا لا تطالع الروايات المصرية التى مازال أشخاصها أحياء يرزقون ؟ فاذا ما تملك اعجابها بطل ما فلتبحث عنه عساها تصل الى معرفته والانتصار عليه فتفوز به وعلى رأسها إكليل (كيوبيد) والى جانبها عشيقها العزيز المغلوب !

فكرة جميلة جداً حاولت أن تخرجها الى حيز الوجود فقرأت أكثر من خمسين رواية فلم تظفر بمطمح أنظارها وأفكارها فأشاحت بوجهها حزينة ولهى !

وكومضة البرق الخاطف تحت جنح الظلام خطر لها خاطر أنست اليه ورأت فيه مخرجا لها من هذه الحالة الاليمة ، هو أن تبحث عمن (تريد أن تحب) فى الجرائد والمجلات المحلية منها بوجه خاص ، ففى هذه الصحف يكتب العشرات من الكتاب والقصصيين والشعراء . فما عليها الا أن تطالعها بانتظام حتى تعثر على ضالتها المنشودة .

°°°

مقالات ! قصائد من الشعر المنظوم أو المنثور ! كلمات مأثورة لا يحصى لها عدد ! هذا سياسي ! ذلك أديب ! الآخر عالم . الا أنهم كثيرون ! كثيرون جداً ولكنهم على رغم كثرتهم لم يثر واحد منهم كامنا فى نفس م فكانت تطالع ماينشرونه ثم لا تلبث أن ترمى الصحيفة جانبا ثم يتملكها شعور هو أقرب الى النفور منه الى سواه .

حتى كانت تلك الليلة البعيدة التى وقع نظرها فيها على مقال « سمير النجوم » فى الحياة والحب والجمال فتنفست الصعداء وبرقت أسارير وجهها وخفق قلبها خفقة غريبة لم تستطع « م » تأويلها الا بأنها عثرت على من تريد أن تحب .

والمجلة التى نشرت مقال « سمير النجوم » أسبوعية كانت « م » تشتريها صباح كل أحد من بائع الجرائد المجاور لدارها ، أما اليوم فقد كتبت الى إدارة المجلة ترجو أن تعدها مشتركة فى ثلاث نسخ أرسلت بدل الاشتراك السنوى عنها سلفا .

وكان نهار الاحد التالى وصدرت المجلة . ويالحزن « م » ! فهى بعد انتظار أسبوع كامل كان أطول من عام لم تقرأ شيئا لـ « سمير النجوم » ويالوحشة القلب !

« أريد أن أحب » وحى أخذ يتجسم مفعوله فى نفس « م » يوما ويوما باعثا الامل فى أعماقها . وفى الاسبوع الرابع قرأت ودموع الفرح تترقرق فى أجفانها مقالا ثانيا لسمير النجوم عنوانه « السعادة ، الزواج والمال » فكان له أثر عميق فى نفس « م » فاعادت قراءته ثانية وثالثة ورابعة حتى أوشكت أن تحفظه عن ظهر قلب .

وفى الاسبوع التالى نشر « سمير النجوم » قصيدة فى ٢١ بيتا بعنوان « قلبى .. » كل بيت من أبياتها يسيل رقة وجمالا ، فكررتها « م » حتى حفظتها كلها وراحت تتغنى بها صباح مساء .

وظلت « م » تتعقب آثار « سمير النجوم » عشيقها ! مثلها الاعلى معبودها ، فتلتهمها التهاما ولا تقرأ ، سواها . وفى أحد الايام فكرت حقا فى الامر وارتأت أن عليها أن تعمل عملا جازما فى هذا الشأن فتقول لسمير النجوم وجها لوجه « انى أحبك .. أحبك أيها الكاتب القدير .. أحبك أيها الفتى الجميل .. » فكيف تصل الى ذلك ؟ وأجهدت فكرها واذا بوحى الحب يهبط فيلهمها ان تدعو « سمير النجوم » ـ برسالة تبعثها اليه بواسطة المجلة ـ لتناول الشاى لديها فى مساء الثلاثاء القادم . ما أبدعها فكرة مصيبة سهلة التنفيذ . !

* * *

وفى هدوء الليل جلست إلى مكتبها تحبر الدعوة إلى سمير النجوم وكان القلم يرتجف بين أناملها فتكتب وتشطب وتمزق ثم تكتب وتشطب وتمزق ثم تعود فتكتب وتشطب وتمزق ..

هذه كلمة خشنة .. هذه جملة مفككة .. هذا تعبير غير صحيح ..

واخيرا استقرت على ان تكون الدعوة كما يلى :

« انا احدى المعجبات بكتاباتك الفياضة بالروح . أتشرف بدعوتك الى تناول الشاى فى دارى الواقعة ... فى الساعة الخامسة زوالية من عصر الثلاثاء القادم . اهلا بك منذ الآن »

قرأتها ثانية وثالثة فاعجبتها ، عندذلك وضعتها فى غلاف معطر وكتبت عليه :

الى الكاتب المحترم سمير النجوم ـ بواسطة مجلة ... الغراء .

وحين استلقت على فراشها أرادت ان تقرأ الرسالة للمرة الاخيرة قبل أن تلتحف فتناولتها وتلتها بصوت عال كأنها تريد أن تتحسس موسيقى نبراتها فصدمتها منها الجملة الاولى « انا احدى المعجبات » لا .. لا لا .. يجب أن تكون هكذا « انا معجبة الخ .. » لماذا أتحدث اليه عن اعجاب الغير ؟

ونهضت الى مكتبها تعيد تبييض الرسالة وبعد هنيهة كانت تساورها الاحلام الجميلة !

(البقية على صفحة ٣٩)

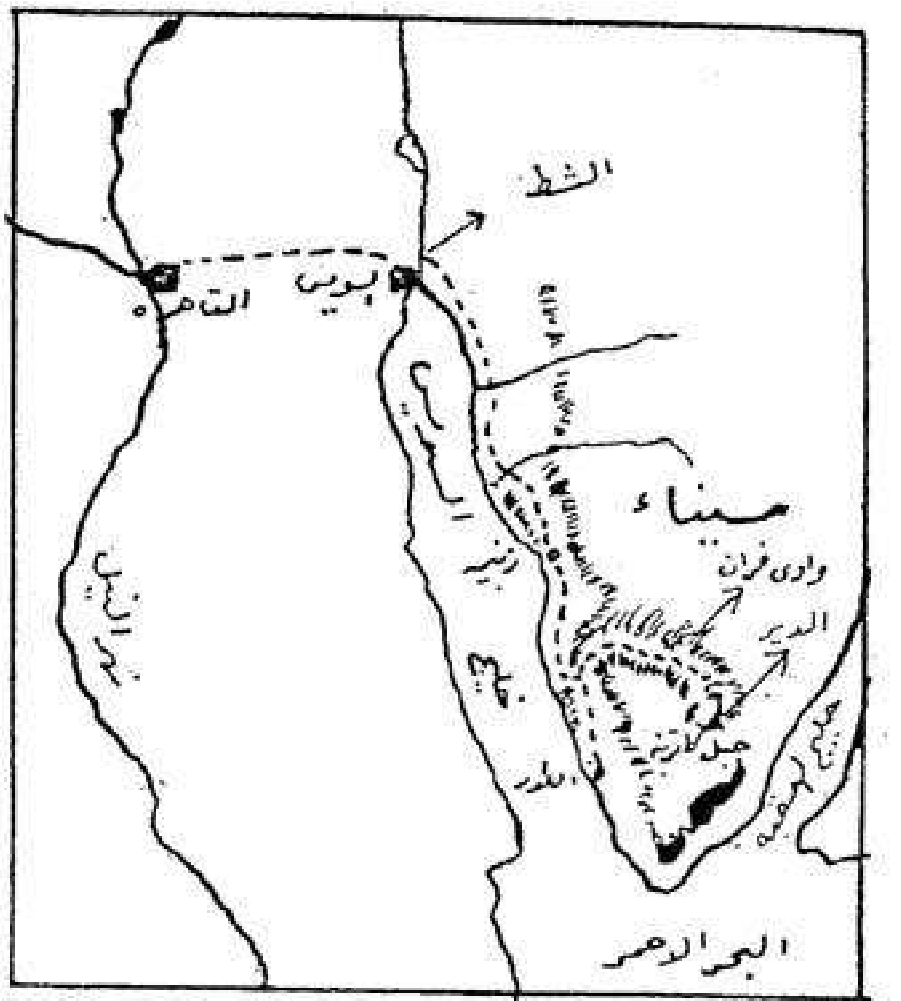
رحلة الى دير طورسينا

للأستاذ الدمرداش محمد

مدير ادارة الامتحانات والسجلات بوزارة المعارف

١

كنا تسعة من الرفاق من شعوب مختلفة جمعتنا المصادفات فاحسنا رغبة مشتركة للقيام برحلة الى قلب شبه جزيرة طورسينا لزيارة ديرها الشهير ، دير سانت كاترين ، فاتفقنا على تنفيذ الرغبة رغم ما تنطوى عليه من مشقة ومتاعب جمة ولكنها كانت رغبة ثائرة دفعتنا الى العمل بحماس شديد ساهم فيه الشاب منا والكهل والشيخ على حد سواء. — وبعد أن استكملنا عدتنا من مرافق السفر والاقامة وتزودنا بكل ما يلزمنا من معلومات وخرائط . استأجرنا أربع سيارات من نوع معروف بالمتانة ومقاومة الصدمات والرجات العنيفة . ثم جعلنا إحداها لحمل المعدات والاخريات لركوب الجماعة.



من القاهرة الى دير طورسينا

تستغرق هذه الرحلة عادة أسبوعا كاملا ثلاثة أيام فى الذهاب ويومين فى الاقامة والتفرج على الدير ومثلهما فى العودة، هذا اذا لم تصادفك عراقيل فى الطريق ولكن كثيراً ما يضيع على المسافر يوم أو بعض يوم فى إصلاح ما قد تصاب به سيارته من عطب أو فى انقاذها من ورطة. فقد تغوص عجلاتها فى الرمل ولا يتيسر اخراجها منه الا بجهد ومشقة وتعتبر الكثبان الرملية من أكبر معطلات الانتقال السريع فى الصحراء . وهى تعترض الطريق فى كثير من الجهات. وكذلك جلاميد الصخر وهى منتشرة فى كثير من الوديان ومجارى السيول . الا أنها أقل خطورة من الكثبان.



والمسافة بين القاهرة والدير نحو ٤٢٥ كيلو مترا يقطعها المسافر عادة فى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى من القاهرة الى السويس. والمرحلة الثانية من السويس الى ابى زنيمة على خليج السويس. والمرحلة الثالثة من أبى زنيمة الى الدير .

غادرنا القاهرة بعد ظهر يوم الخميس ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ بساعتين قاصدين السويس عن طريق الصحراء ، فوصلناها فى الاصيل وبتنا فيها .

وفى اليوم الثانى عند الفجر عبرنا قنال السويس الى الضفة الشرقية عند نقطة الشط، وبعد أن فحصنا سياراتنا ورتبنا معداتنا انطلقنا نسير نحو الجنوب فى طريق رملى منبسط — وعن يميننا خليج السويس وعن يسارنا تلال تتدرج فى الارتفاع كلما بعدت عنا نحو الشرق — وبعد ساعة من الشط مررنا بعيون موسى وهى عبارة عن واحة صغيرة قريبة من الخليج خالية من السكان وبها عين ماء مرّ كدرة ونخيل وبعض اشجار اخرى.

وعند الظهر قطعنا وادى الغرندل . وهو وادعريض يسير من الشرق الى الغرب، كثير الشجيرات، وافر الكلأ يتوسطه مجرى من الماء العذب. وبعد وادى الغرندل تتغير طبيعة الطريق فيصير صخريا فى كثير من اجزائه كثير التعاريج والالتواءات بين انخفاض وارتفاع. وتقوم فى جهته الغربية سلسلة من جبال عالية تحجب البحر ونسيمه . وقبيل العصر برزت امامنا جبال المنجنيز بلونها الأدكن وعلوها الشاهق. وبعد أن مررنا بوادى الطيب وهو كوادى الغرندل كثير الماء. انعطف الطريق نحو الغرب. وبعد أن اجتزنا مضيقا بين جبلين انحدرنا نحو البحر الى سهل واسع مواز للخليج تقع أبو زنيمة فى طرفه الجنوبى على مرفأ صغير للسفن وهى عبارة عن قرية صغيرة بها منشئات شركة المنجنيز ومستودعاتها ومساكن

الموظفين والعمال ومسجد ومدرسة أولية ونقطة بوليس ومكتب للبريد والتلغراف ودكان صغيرة (كانتين) قد يجد فيها المسافر بعض ما يلزمه كالأطعمة المحفوظة والبنزين والسجاير، وبالقرب من الدكان المذكورة مستودع للماء العذب الذى يؤتى به من السويس فى البواخر والشركة تعطيه للمسافر من غير مقابل.

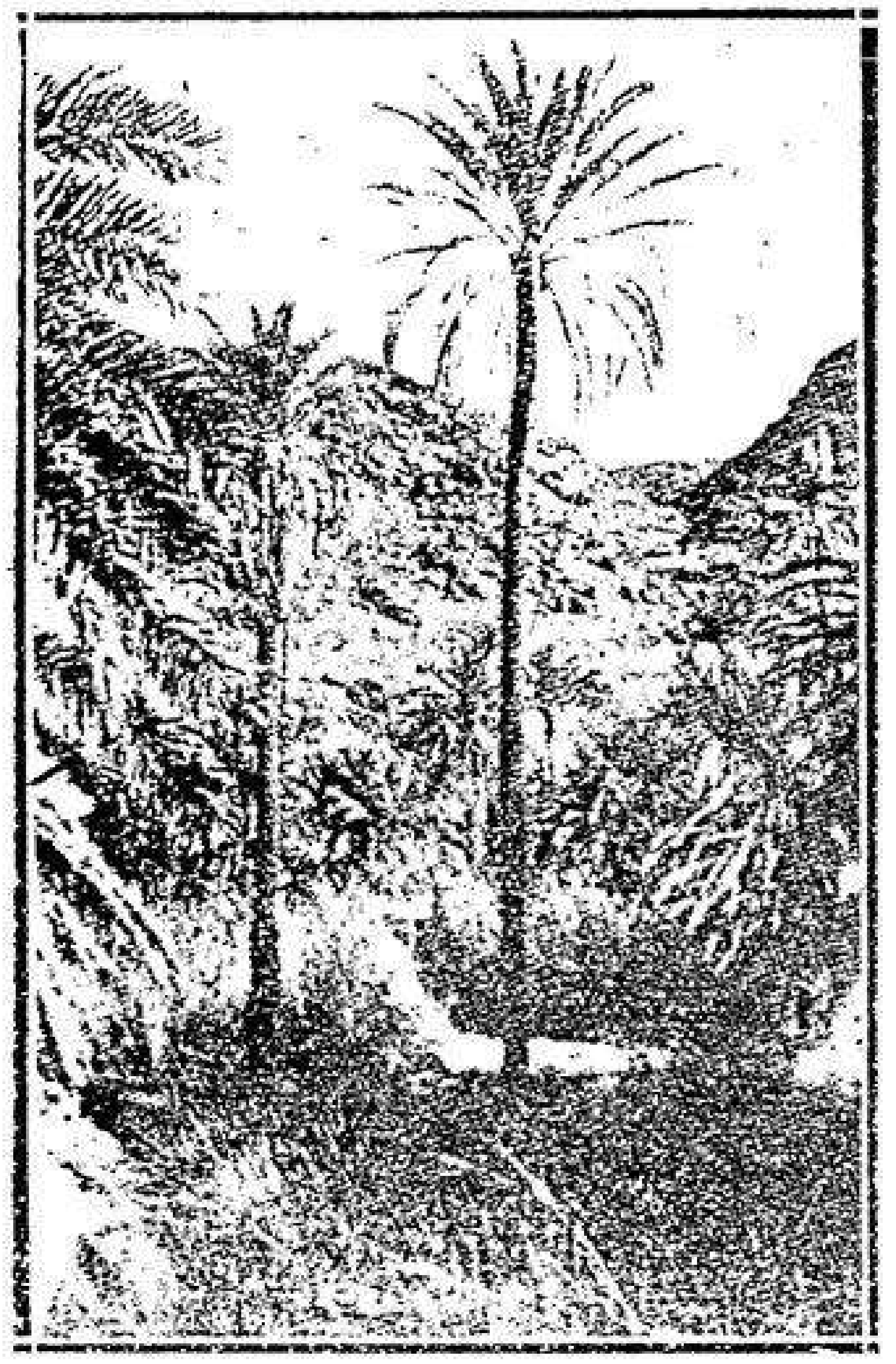
كان وصولنا الى أبى زنيمة قبل الغروب بساعة فلم نشأ المبيت بها بل تابعنا السير والطريق بعدها لمسافة ليست قصيرة ضيق يسير فوق صخور عالية تشرف على البحر من جهة وتحف بها الجبال من الجهة الاخرى. وعند الغروب وصلنا الى نقطة بوليس لخفر السواحل واقعة على البحر تبعد عن السويس نحو ١٥٤ كيلومترا فبتنا بالقرب منها.

وفى صباح اليوم الثالث تابعنا السير جنوبا فى الطريق المؤدى الى الطور مبتعدين عن الطريق الشرقى للدير لكثرة رماله الناعمة وهو الذى تسلكه عادة سيارات مصلحة الحدود. وعند الظهر وصلنا الى نقطة تفرع منها طريق يتجه شرقا وهو طريق وادى فيران الموصل الى الدير فتبعناه وبعد ساعة - وكان تقدمنا بطيئا جدا لليونة الارض وكثرة الجلاميد بها - دخلنا



منظر بوادى فيران

وادى فيران العظيم. وهو من اجمل الوديان التى شاهدتها. طوله نحو ١٢٠ كيلومترا. كثير التعاريج، وجباله جرانيتية شاهقة ذات ألوان متعددة بين ابيض واسود واحمر، وجوانبها تكاد تكون رأسية وقممها مخروطية تناطح السحاب، والوادى كثير العشب والخيرات. وتقع واحة فيران فى منتصفه طولها نحو اربعة كيلومترات، يرويها نبع من الماء الزلال يتفجر من جوانب الصخر ويسيل فى مجارى تتخلل بساتين الواحة وترويها، والواحة عامرة بالناس والحيوان والمزروعات والحشائش، ففيها من الحيوانات الجمل



واحة فيران

والغنم والماعز. ومن المزروعات القمح والشعير والبقول. ومن الاشجار النخيل والليمون المالح والتفاح والنبق والتين والزيتون والسرو والعنب والصبير وغير ذلك من الاشجار البرية التى لا اعرف لها اسماء.

كان وصولنا الى الواحة قبل الغروب بساعة فنزلنا ضيوفا على الحديقة التابعة للدير وبتنا تلك الليلة بها. وقد رحب بنا الراهب المشرف على الحديقة وزادنا اكراما فهيأ لنا عشاء شهيا مركبا من شاة مشوية وبعض البقول المطبوخة والفواكه المحفوظة.

وبعد العشاء جلست الى الراهب استمع لما يقول وهو من أصل يونانى يتكلم العربية برطانة ولكنها مقبولة مفهومة قال: جئت هذه الواحة موفدا من قبل المطرانية منذ ستة عشر عاما وكنت قد جاوزت الستين فوجدت فيها ما كنت أنشده من العزلة وطيب الاقامة ولا يزيدنى مرور الأيام الا التصاقا بها ومحبة فيها وقد عشت مع هؤلاء البدو الطيبين عيشة عائلية

لم تشب عشر تناطول هذه المدة أية شائبة ،وكل ما أتمناه ان تكون حجرتي الصغيرة هذه ـ مشيرا الى حجرة تتوسط الحديقة ـ وهي التي آوتني طوال هذه السنين في قيظ الصيف وزمهرير الشتاء ، أتمنى ان يكون فيها لحدي كذلك ثم سكت وأطرق برأسه ،وبعد ان تثاءب طويلا اخذ يرتل نشيدا دينيا بصوت خافت و نغمة عذبة شجية طربت لها واهاجت عواطفي حتى كدت ابكي ثم اتجه الى ناحية في الحديقة ودعانا نرقب الهلال من بين ربى سربالة ،فكان مشهدا لم أر أجمل منه

ومظهر الحديقة وحسن تنسيقها يدلان على ما يبذله هذا الشيخ من عناية ومجهود ، ويقوم على خدمتها جماعة من البدو بارشاده ، وله عندهم مكانة واحترام ،وهو يعيش بينهم آمنا مطمئناً و يعيشون في كنفه مسالمين قانعين، وهو المتصرف في شئون النبع فلا يسمح لبساتين الأهالي من مائه الا بما يزيد عن حاجة حديقته .

ويشرف على الواحة جبال سربالة بجدرانها القائمة وقممها الضاربة نحو السماء برؤوس مخروطية كالسهام . وقد شاهدنا بين الربى مبان قديمة قيل لنا إنها منازل رومانية أثرية ومن بينها صوامع للرهبان .

وفي صباح اليوم الرابع تابعنا السير بين مناظر طبيعية رائعة خلابة وكان تقدمنا بطيئاً كاليوم السابق لتصعيد الطريق ،وقبل الظهر مررنا بقبة على ربوة بجانب الوادي قيل لنا إنها مقام نبي الله صالح عليه السلام وبعدها تغيرت معالم الوادي واتجهنا نحو الجنوب ثم مال بنا الطريق نحو الشرق وارتقى بنا في واد شديد الانحدار ، وهناك في أحضان جبال ثلاثة وعلى ارتفاع ألف متر من سطح البحر أو يزيد، ظهرت لنا حديقة الدير باشجارها الباسقة ومن خلفها الدير نفسه رابضاً عند سفح جبل موسى كالحصن ثابت الأركان عالي الجدران تعلوه المنازل والابراج

« لها بقية »

تريد أن تحب ...؟

(بقية المنشور على صفحة ٣٦)

بعد ثلاث ساعات يأزف الوعد . كل شيء منظم بذوق سليم : الاواني . الطنافس ، الوسائد ، الصور ، في وسط الغرفة رسم لها كبير يريك نديها الايمن تغطيه ملاءة حريرية شفافة ، مجموعات الرسوم الفنية ، الراديوغرامافون ، السكاير ، العطور . ما اعظمه يوما في التاريخ .!

لم يبق الا ساعتان

لم يبق سوى ساعة ونصف !

ساعة واحدة فقط . ثلاثة أرباع الساعة . . نصف ساعة . . ربع ساعة . . ما لقلبها يدق سريعا سريعا . . ؟ ما لها لا تستطيع الثبات على المقعد . . ؟ إنها تروح وتغدو كأن في صدرها نارا تحركها . .

بقي عشر دقائق . . تسع . . سبع . . خمس . .

وأحست بقلبها كأنه يريد ان يتحرك من مقره ، وبصدرها يعلو ويهبط . . وبافكارها وأنظارها زائغة لا تستقر على قرار .

تن . . تن . . تن . . تن . . تن

دقت الساعة خمسة فطرق الباب على الاثر فهرولت تستقبل سعادتها المنتظرة .

فتحته قليلا وهي تقول بصوت عذب متقطع . تفضل !

فدخل سمير النجوم يتوكأ على عصاه . . كان شيخا تجاوز الستين ، محدودب الظهر ، غائر العينين . . . .

ـــ مساء الخير سيدتي . .

ـــ تفضل ! !

وأومأت اليه أن يدخل غرفة الاستقبال وركضت إلى غرفتها فارتمت على فراشها تبكي بكاء الاطفال . . .

بغداد

انور شاءول
المحامي

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

نقلها إلى العربية

احمد حسن الزيات

لاتينيون وسكسونيون

لم أكن أحب أن تنتقل المناقشة بين الاستاذ العقاد وبيني من نقد اللاتينيين ونقد السكسونيين الى الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية. ولست أحب أن تنتقل المناقشة الى هذا الموضوع . ولست أريد ولا أستطيع أن أجارى الاستاذ العقاد في المفاضلة بين هاتين الثقافتين.

ذلك لأنى أحب الثقافتين جميعا وأوثرهما جميعا وأريد أن أتثقف بهما جميعا بل أريد أن أتثقف بكل ثقافة أستطيع أن أصل اليها أو أن أظفر منها بحظ سواء كان ذلك من طريق القراءة في النصوص الاولى أو من طريق القراءة في التراجم . واذا كنت اشكو شيئا أو أضيق بشيء فهو أن قدرتى ووقتى لا يسمحان لى بأن أقرأ كل شيء وأن آخذ من كل ثقافة بطرف قوى أو ضعيف طويل أو قصير . ولم أفهم قط مناقشة في تفضيل ثقافة على ثقافة أو ايثار ثقافة على ثقافة بالقياس الى أديب كالاستاذ العقاد، أو الى رجل مثلى كل همه أن ينتفع ما استطاع بالثقافات الانسانية على اختلافها .

بل أذكر أن مسألة الثقافات المختلفة قد فرضت نفسها على فرضا فى بعض الاوقات حين كنت أستطيع أن أوجه التعليم فى بعض البيئات المصرية بعض التوجيه . فكرهت دائما أن أوثر ثقافة على ثقافة، ووقفت دائما موقف الخصومة العنيفة من الذين كانوا يريدون أن يفرضوا على مدارسنا الثقافة اللاتينية أو الثقافة السكسونية. ودعوت وسأدعو دائما إلى أن تكون مدارسنا وجامعاتنا ملتقى لاعظم حظ ممكن من الثقافات . وأن يترك للطلاب وأسرهم حق الاختيار بين هذه الثقافات . وقد دعوت وسأدعو دائما الى ألا تفرض على طلابنا وتلاميذنا لغة بعينها من لغات أوربا الكبرى . وانما تدرس هذه اللغات الكبرى كلها فى المدارس ويختار منها الطلاب وأسرهم ما يشاءون . وحجتى فى ذلك أن الثقافات كلها قيمة خصبة وأن منفعتنا الصحيحة انما تتحقق يوم نأخذ منها جميعا بحظوظ مختلفة فلا نكون أسرى الانجليز ولا أسرى الفرنسيين ولا أسرى الألمان وانما نكون مصريين قبل كل شيء يأخذون بحظهم من الثقافات الحية حسب أمزجتهم ومنافعهم وحاجاتهم وطاقاتهم أيضاً . واذا كان هذا مذهبى فى الصلة بيننا وبين الثقافات الحية فمن غير المعقول أن أجادل فى تفضيل ثقافة على الأخرى . والذين قرأوا الفصل الذى كتبته فى الرسالة يذكرون أنى لم أوثر اللاتينيين على السكسونيين ولم أفضل هؤلاء على اولئك، وانما أنكرت وما زلت أنكر على الاستاذ العقاد زعمه أن النقاد اللاتينيين يؤثرون الظواهر والاوضاع الاجتماعية ويتتبعون النكت ومراسم الصالونات على حين يعنى النقاد السكسونيون ببساطة الطبيعة وبالرجل من حيث هو رجل .

هذا بالضبط هو موضوع الخلاف بين الاستاذ العقاد وبينى. ويسرنى أن الاستاذ قد برىء فى الفصل الذى كتبه ردا على من أن يكون قد أراد أن يعم اللاتينيين كلهم بهذا الحكم . فهذه البراءة فى نفسها انصاف لهؤلاء النقاد اللاتينيين الذين جنى عليهم مدح الاستاذ أنطون الجميل لشعر شوقى رحمه الله .

وليس الدفاع عن النقاد اللاتينيين تعصبا لثقافتهم اللاتينية أو تنكرا لثقافة السكسونيين وانما هو العلم ينبغى أن يقر الاشياء فى نصابها . وليس من الحق بحال من الأحوال أن نقد اللاتينيين كله أو أكثره أو نصفه أو ثلثه كما أراد الاستاذ العقاد أن يصوره : وانما النقد اللاتينى كان دائما وما زال نقدا جديا يقصد الى طبيعة الكاتب أو الشاعر فى بساطتها، ويقصد الى الرجل من حيث هو رجل . وقد يصطنع فى ذلك التأنق والظرف ولكن ذلك ليس عيبا له ولا غاضا منه وانما يعيبه ذلك ويغض منه لو لم يكن فى النقد اللاتينى إلا تأنق وظرف؛ فأما وفيه بحث وتحقيق. فأما. وفيه التماس لطبيعة الكاتب والشاعر فى بساطتها . فقد يكون التأنق والظرف شيئاً لا بأس به ولا معنى للزهد فيه .

وعجيب جداً من الاستاذ العقاد أن يكره الاعتراف بأن النقد الحديث كله يقوم رغم تطوره واختلاف المذاهب الحديثة فيه على الثقافة الأدبية اليونانية واللاتينية وعلى ما شرعه ارسطاليس فى كتاب الخطابة والشعر من أصول البيان . غريب جداً كره الاستاذ العقاد لهذه الحقيقة . فان العقل الأوربى كله مهما تكن بيئته ومهما تكن جنسية اصحابه ومهما يكن حظه من التطور وليد العقل اليونانى الرومانى سواء رضينا أم كرهنا ولست أدرى لماذا يقبل الاستاذ العقاد أن تكون طبيعة ارسطاليس ومنطقه والهياته ورياضيات اقليدس اصولا لطبيعة الأوروبيين المحدثين ومنطقهم والهياتهم ورياضياتهم ولا يرضى أن يكون نقد اليونانيين والرومانيين أصلا للنقد الحديث، مع أن اتصال الأدب الحديث بالأدب اليونانى واللاتينى ما زال أقوى وأشد وأمتن

من اتصال العلم الحديث بالعلم اليوناني . ولست ادري لم يرضى الاستاذ العقاد أن يكون تفكير اليونانيين والرومانيين في السياسة والتشريع أصلا من أصول التفكير الأوربي الحديث في السياسة والتشريع ولا يؤمن للنقد بمثل هذه الصلة؟ أم هل الاستاذ العقاد ينكر أن يكون بين العقل الاوربي الحديث وبين العقل اليوناني الروماني صلة ما بين الاصل والفرع؟ فان كان هذا مذهبه فليس من السهل أن نلتقي أو ان نتفق . بل ليس من السهل أن يلتقي الاستاذ أو يتفق مع ! الاوربيين انفسهم .

ومن الذي يزعم ان رقي النقد الحديث وبعد ما بينه وبين أصله القديم يقطع الصلة بينهما؟ وما عمل التطور اذن في حياة الاحياء ؟ وهل بيننا نحن المتحضرين المترفين وبين آبائنا الذين كانوا يسكنون الكهوف والاغوار ويهيمون في الاحراش والغابات صلة ! ام هل نحن قوم قد خلقنا انفسنا وابتكرناها ابتكاراً ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يوافق الاستاذ العقاد على أن النقد لا يمكن أن يكون علما يذكر قبل أن يوجد علم النفس الحديث" ؟ أما انا فلا أعرف أن النقد علم ولا أحب له أن يكون علما وانما أرى كما قلت في غير هذا الموضع أن يكون النقد مزاجاً من العلم والفن وهو على هذا النحو قد وجد منذ عهد بعيد ، وجد منذ كان السفسطائيون يعلمون الناس في صقلية واثينا صناعة الخطابة وفن الجدل . وجد حين كان ارسطوفان يوازن بين ايسكولوس وايروبيدس أمام النظارة من الاثينيين وهو يمثل لهم قصة الضفادع أو عيد سبرس، وجد حين وضع ارسطاليس فن الخطابة وفن الشعر واستمر في روما عند سيسرون وعند خلفائه من نقاد الرومان، ووجد كذلك عند العرب . ووجد عند الاوربيين المحدثين قبل أن يوجد علم النفس الحديث . انما الذي نستطيع أن نوافق الاستاذ عليه هو أن هذه الفنون من النقد القديم قد أصبحت الآن لا ترضينا ولا تغنينا كما أصبحت طبيعة ارسطاليس وطب ابن سينا وفلك جالينوس لا تعجبنا ولا تغنينا ، ولكن هذا شيء وما يذهب اليه الاستاذ العقاد شيء آخر . اما أنا فاعتذر الى الاستاذ من أني لا أستطيع أن آخذ الاشياء هذا الاخذ السهل الهين القريب ولا أن اقف بها عند أصولها القريبة وإنما أحب ان اتبعها وان اتبعها الى ابعد ما استطيع أن اصل اليه من الاصول، وقد يكون ذلك عيبا من عيوب الثقافة العربية التي نشأت عليها أو من عيوب الثقافة اللاتينية التي تأثرت بها، ولكني حريص على هذا العيب لأني اراه الأصل الصحيح لكل بحث علمي له صبغة من الجد .

ولست أشك في ان الاستاذ العقاد نفسه حريص على هذا العيب لأن الثقافة السكسونية تكبره أشد الاكبار ويخيل الى أن قد كان سكسونيا ذلك الرجل الذي لم يرضه ان ينتهي بالانسانية الى آدم فترقى بها أو تنزل في طبقات الحيوان الاخرى . ولست أدري لم نقر درون حين يرد الناس الى القردة ولا نقر الاديب الذي يرد النقد الحديث الى نقد ارسطاليس ؟

وبعد فأيهما انشأ صاحبه : أهو علم النفس الذي انشأ النقد أم هو النقد الذي أنشأ علم النفس الحديث؟ مسألة تظهر غريبة بعض الغرابة لأن المعروف أن علم النفس فرع من فروع الفلسفة قد تطور حتى أصبح الآن علما تتناوله المعامل بالدرس والتحليل ، والنقد فن من فنون الادب . ومع ذلك فهذه الغرابة لا تثبت اذا فكرنا في ان هذا النقد انما هو تحليل للآثار الادبية وأن هذه الآثار الادبية انما هي صور لنفوس الادباء الذين أنشأوها ولنفوس القراء الذين استمتعوا بها . فدراسة الآداب دراسة للنفس الانسانية . وليست هذه الفكرة جديدة ولا عصرية وانما هي قديمة جدا عليها اعتمد ارسطاليس في كتاب الخطابة والشعر وعليها اعتمد العرب انفسهم في فنون البيان . ومن المحقق الذي لا شك فيه أن الدراسات النقدية التي نشرها «سانت بوف» قد أعانت جدا على تكوين علم النفس الحديث. ومن المحقق الذي لا شك فيه ان «تين» كان ناقداً ولكنه ألف كتاب العقل الذي لا يزال له خطره العظيم في علم النفس الحديث . فليس وجود النقد الحديث نتيجة لنشأة علم النفس، وانما النقد مؤثر جدا في نشأة علم النفس ومتأثر جداً بهذا العلم، وكلاهما قديم وضع اليونان أصوله الاولى. وانا معتذر الى الاستاذ العقاد من الرجوع دائما الى اليونان فقد أراد الله أن نرجع اليهم دائما كلما أردنا تاريخ مظهر من مظاهر الحياة العلمية أو الفنية أو الادبية .

وهنا أريد ان اعاتب الاستاذ العقاد عتابا رفيقا . فقد زعم الاستاذ ان «سانت بوف» لا يشهد لمذهبي في نقد اللاتينيين، وانما يشهد لمذهب الاستاذ لأن ما في «سانت بوف» من مزايا راجع الى تأثره بالثقافة السكسونية والدم السكسوني . ذلك أن أم سانت بوف من اصل انجليزي وأنه كان يؤثر الشعر الانجليزي على الشعر الفرنسي في بعض الفصول التي كتبها عن الانجليز، وفي بعض رسائله الخاصة .

اما أن «سانت بوف» كان يؤثر الشعر الانجليزي على الشعر الفرنسي فذلك شيء مشكوك فيه جداً لأن «سانت بوف» لم يكن يؤثر شيئا أو قل كان يؤثر كل شيء . أو قل ان اردت التحقيق ان اخص ما يمتاز به هذا الناقد العظيم انه كان شاكا مسرفا في الشك يقر اليوم شيئا ويعدل عنه غدا ويجوز أن يرجع اليه بعد غد . ولقد اراد «اميل فاجيه» ان يشخص عقلية «سانت بوف» فقال انه لم يؤمن بشيء ولم يقتنع بشيء ولم يؤثر شيئا على شيء، حتى حين اعتنق الكاثوليكية في الدين والرومنتسم في الادب . وخدع عن نفسه زعماء الدين حتى هم «لامنيه» أن يستصحبه الى روما، وزعماء الرومنتسم حتى فتن عظيمهم «فيكتور هوجو» .

كان «سانت بوف» اذا عني بشيء جديد من شعر أو نثر أو تاريخ فتن به فتنة المؤمن الفاني في الايمان حتى اذا أنفقه وقتله بحثا وفهما زهد فيه وانصرف عنه ونفر منه نفورا شديداً . ولم يكن هذا أبدا في حياته العقلية والادبية

فحسب. بل كان دأبه فى حياته العملية والشعورية. فقد كلف بالمذاهب السياسية كلها وزهد فيها كلها وكلف بالكاثوليكية حتى فتن الكاثوليك وبالبروتستنطية حتى شغف به البروتستنطيون. وقال عنه «فاجيه» انه لم يكن يستطيع ان يحب امرأة بينها أو كان يستطيع ان يحب النساء جميعا. واذن فلا ينبغى ان يخدعنا «سانت بوف» حين يثنى على الشعر الانجليزى ثناء المفتون به، فلعله لم يكد يفرغ من هذا الثناء حتى انكره. وهو كذلك قد اثنى على الشعر الفارسى حين ظهرت ترجمة الشهنامة ثناء المفتون به وهو مع ذلك لم يعرف الفارسية ولم تفتنها ثقافته حقاً، وهب هذا الناقد العظيم قد آثر الشعر الانجليزى حقا على الشعر الفرنسى ولم يخدع نفسه ولم يخدع الناس عن رأيه الصحيح فى ذلك فمن ذا الذى يزعم مخلصا ان هذا يكفى لاثبات ان الناقد مدين بمزاياه للثقافة الانجليزية؟

أؤكد للاستاذ أنى لم أعتقد يوما من الأيام انه هو مدين حتى بوحى الاربعين وغيره من دواوينه ولا بكتابه عن ابن الرومى ولا بكتابه عن جوت ولا بابحاثه الكثيرة الممتعة لثقافته الانجليزية الخصبة التى يحبها ويذود عنها. وانما هو مدين بهذا كله كما يرى «سانت بوف» لشخصيته ولبيئته الخاصة التى نشأ فيها عقله والتى لا تكاد تتجاوز الكتب التى قرأها والمعانى التى فكر فيها والمسائل التى عرض لدرسها. فحب «سانت بوف» لشعر الانجليز ان صح لا يجعله مدينا بادبه للانجليز. وأين يقع تأثير الثقافة الانجليزية فى «سانت بوف» من تأثير الثقافة الفرنسية فيه؟ والذى كتبه سانت بوف عن الانجليز وعن الاجانب كلهم ليس شيئا يذكر بالقياس الى ما كتبه عن الفرنسيين فى كتبه الضخمة المدهشة فى هذه المجلدات الستة عن بورويال وفى هذه المجلدات الثمانية عن الصور، وفى هذه المجلدات الثلاثة والعشرين التى سماها احاديث الاثنين، وفى هذين المجلدين عن شاتوبريان وأصحابه اين يقع ما كتبه «سانت بوف» عن الانجليز مما كتبه عن الفرنسيين بل مما كتبه عن اليونانيين واللاتينيين؟

فالاستاذ العقاد يعلم بالطبع أن «سانت بوف» عين أستاذاً للادب اللاتينى فى الكوليج دفرانس، ولما منعه الطلاب من القاء دروسه عن فرجيل لأنه كان يؤيد سياسة الامبراطورية الثانية طبع الدروس التى لم يستطع القاءها فكان منها كتاب قيم عن صاحب الانيادة. وقد كتب «سانت بوف» عن كثير من شعراء اليونانيين وعن الأسكندريين منهم خاصة. فما بال الأستاذ العقاد يرى تأثر «سانت بوف» فى نقده بالثقافة الانجيزية ولا يرى تأثره بالثقافة اللاتينية واليونانية لأنه أحب شعراء اللاتين واليونان، وبالثقافة الايطالية لأنه كتب عن شعراء إيطاليا فى عصر النهضة، وبالثقافة الألمانية لأنه كتب عن جماعة من الألمان وعن جوت؟

أما أن أم الناقد العظيم كانت من أصل انجليزى فالأستاذ يبالغ فى نتيجته، فقد كانت أم «سانت بوف» نصف انجليزية كما تقول دائرة المعارف البريطانية، وذلك ان أباها كان بحاراً فرنسيا وان أمها كانت انجليزية. فاذا كان الأستاذ العقاد يرى أن هذا يكفى ليكون «سانت بوف» مدينا بمذهبه فى النقد للانجليز فليسمح لى بألا أذهب معه فى هذه الطريق لأنها طريق شديدة الالتواء. للوراثة أثرها فى تكوين الفرد ولكن من الاسراف أن نذهب فى تقدير هذا الأثر مذهب الأستاذ ومن الغريب أن الذين أرادوا أن يدرسوا مذهب «سانت بوف» فى النقد لم يحفلوا بهذا العنصر الانجليزى فى تكوينه، فلم يلتفت «فاجيه» ولا «لنسون» الى أم «سانت بوف» كثيراً

أما تين فرأى الأستاذ العقاد فيه عجيب، فهو يرى أنى لم أوفق حين استشهدت به أيضا لأن عمه علمه الانجليزية فى صغره ولأن تين شغف بالآداب الانجليزية فكتب لها تاريخاً، ولكن الاستاذ العقاد نفسه تعلم الانجليزية صغيراً وشغف بها وقرأ كثيراً من الآداب الانجليزية. والثقافة العربية ضعيفة بالقياس الى الثقافة الانجليزية. ومع ذلك فأنا لا أطمئن الى الحكم بأن الأستاذ مدين بأدبه للانجليز. فكيف اذا عرفنا أن الثقافة الفرنسية التى نشأ فيها تين ونبغ بفضلها قوية تستطيع أن تثبت للثقافة الانجليزية، وأن تين لم ينبغ بتاريخه للآداب الانجليزية وانما نبغ بكتب أخرى أجل خطراً من هذا الكتاب، نبغ بكتابه عن لافونتين الذى نال به الدكتوراه من السوربون، ونبغ بكتابه الضخم الذى أرخ فيه فرنسا الحديثة، ونبغ بكتابه عن العقل، ونبغ بكتابه فى فلسفة الفن. فهل يظن الاستاذ بعد هذا كله أنى لم أوفق حين اتخذت سانت بوف وتين أعلى مثل للنقد اللاتينى الفرنسى؟ وما ذنبى أنا اذا كان الله قد أراد أن يكون هذان الرجلان رمزين خالدين لحياة الادب الفرنسى فى القرن الماضى؟

ولقد بعدنا جداً عما كنا بسبيله من تشخيص النقد الفرنسى اللاتينى، أهو نوع من تتبع النكتة وتأنق الصالونات أم هو نقد بأدق معانى كلمة النقد؟ لن ينفع الاستاذ العقاد أن يحتاط وأن يقول انه لم يرد النقاد الفرنسيين جميعاً، وانما أراد كثرتهم أو قلتهم، فليس من الحق أن كثرة النقاد الفرنسيين أو قلتهم كما يظن الاستاذ. وانما الحق الذى لا سبيل الى الشك فيه ان السمة الفنية الخالصة هى أظهر ما يتصف به النقد الفرنسى، وان من ظلم العلم والحق ان يقال فى هذا النقد غير ذلك.

وأما بعد فهل يسمح لى كتاب آخرون أرادوا أن يخوضوا معنا فى هذا البحث بأن أتحدث اليهم حديثاً قصيراً ولكنه لابد منه. فأما أحد هؤلاء الكتاب فالأستاذ سلامه موسى الذى تفضل

(البقية على صفحة ٤٦)

الكتب

ضحى الاسلام

ألفه العلامة أحمد أمين الأستاذ بكلية الاداب ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر فى ٥٠٠ صحفة من القطع الكبير وقدم له (الدكتور طه حسين بهذه المقدمة) وستعود الرسالة الى هذا الكتاب القيم فتقول كلمتها فيه . قال الدكتور :

أراد ناقد من نقاد التمثيل أن يثنى على قصة راقته ، وملكت عليه إعجابه ، وكان صاحب القصة له صديقاً حميما ، فتوقع أن يلام فى الثناء عليه ، ولكنه لم يتحرج من إهداء هذا الثناء الى صديقه فى غير تردد ولا تحفظ . وأعلن فى صراحة - أعجبتنى - أن من خيانة الأصدقاء أن تتخذ صداقتهم وسيلة الى جحود مالهم من حق ، وإخفاء مالهم من فضل ، وتجاملهم هذه المجاملة السلبية التى تدفعك الى أن تتردد وتتحفظ ، وتقدم اليهم ثناء متقعاً شاحبا ، حتى لا تتهم بالاغراق ، ولا توصف بالمحاباة . وحتى لا يسوء ظن قرائك بنصيبك من الانصاف ، وحظك من الاستقلال .

رأى ذلك الناقد ، وأنا أرى معه ، أن هذا النحو من معاملة الأصدقاء خيانة منكرة ، وظلم قبيح . وأنه فى الوقت نفسه نوع من اتهام النفس ، والاسراف فى سوء الظن بها . فليس ينبغى للناقد أن يُصْدِرَ — فيما يرى من رأى — عما يقول الناس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه ، وإنما هو مدين لنفسه ولقرائه بما يعتقد أنه الحق الخالص ، سواء أرضى الناس أم سخطوا ، وسواء أوافق رأيه هوى القراء ، أم انحرف عنه .

وعلى هذا النحو من الاستعداد عمدت دائماً الى النقد ، واجتهدت ما استطعت ألا أظلم الصديق لصداقته ، ولا الخصم لخصومته ، وليس الظلم مقصوراً على أن تغض من العمل الأدبى أو العلمى ، أو تنقص من قيمته لأن صاحبه صديق لك ، أو حرب عليك . بل هناك ظلم أقبح من هذا وأشنع . وهو أن تثنى على من لا يستحق الثناء ، أو تغلو فى حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار ، وأن تحمد الخصم لأنه خصم ، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك خاصمه فعجز عن انصافه وتحامل عليه .

ولست أريد أن أخون صديقى « أحمد أمين » بالاسراف فى الثناء عليه ، ولا ان اخونه بالغض منه والتقصير فى ثنائه : ولست أريد أن أنسى صداقته ، وأهمل — ولو لحظة قصيرة — ما بينى وبينه من مودة كلها صفو وإخاء استطعنا أن نجعله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأغراض الحياة ، إنما أريد أن أنصفه . وأشهد لقد فكرت وقدرت ، وجهدت نفسى فى أن أجد شيئاً من التعيب ذى الخطر أصف به هذا الكتاب الذى أقدمه الى القراء فلم أجد ، ولم أوفق من ذلك الى قليل ولا كثير .

وليس ذنبى أن « أحمد أمين » قد قصد الى عمله فى جد وأمانة وصدق ، وقدرة غريبة على احتمال المشقة والعناء ، والتجرد من العواطف الخاصة . والأهواء التى تعبث بالنفوس ، فوفق من ذلك إلى أعظم حظ يستطيع العالم أن يظفر به فى هذه الحياة .

نعم ؛ وليس من ذنبى أن « أحمد أمين » قد استقصى فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأجاد القراءة ، وفهم فأتقن الفهم ، واستنبط فوفق إلى الصواب . ليس من ذنبى هذا ولا ذاك ، وليس من ذنبى أن « أحمد أمين » بعد هذا كله ، وبفضل هذا كله ، قد فتح فى درس الأدب العربى باباً وقف العلماء . والأدباء أمامه — طوال هذا العصر الحديث — يدنون منه ثم يرتدون عنه ، أو يطرقونه فلا يُفْتَح لهم ، ووفق هو الى أن يفتحه على مصراعيه ، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق ناصعة ، يبتهج لها عقل الباحث والعالم والأديب ، ليس شىء من هذا ذنبى أنا ! وإذا لم يكن بد من أن يلام أحد لأن عالماً مصريا قد وفق إلى هذا الفوز المبين ، أهدى إلى اللغة العربية كتاباً لم يُسبق الى مثله ، فليُلَم هذا العالم المصرى نفسه ، وليعاقَب « أحمد أمين » لأنه قد ظفر بهذا الفوز .

لقد اختار « أحمد أمين » لكتابه عنوانه هذا « ضحى الاسلام » وهو لا يقدر إلا أن الضحى يأتى بعد الفجر ، وأنه وقد أظهر « فجر الاسلام » يجب أن ينغمس فى ضحاه . أما أنا ، فكنت أفهم معه هذا الفهم ، وأذهب معه هذا المذهب ، ولكنى لم أكد أبدأ معه قراءة الكتاب حتى أخذت أحس شيئاً لم أرد أن أتحدث به إليه ، مخافة أن يكذب ظنى مضينا فى قراءة الكتاب ، ولكننا مضينا ، ومضينا حتى أتممنا هذا الجزء الذى نقدمه الى

القراء. فاذا هذا الشيء الذي كنت أحسه يزداد وضوحاً وجلالاً وقوة. واذا ظني يصدق شيئاً فشيئاً حتى يصبح يقيناً، وإذا أنا مؤمن ايماناً لا يشوبه الشك بأن هذا الكتاب الذي أنا سعيد بتقديمه الى القراء يُلقي على تاريخ الاسلام فى العصر العباسي الأول نوراً رائعاً وضاء فهو أشبه شيء بنور الضحى.

فالكتاب «ضحى الاسلام» لأنه يدرس تاريخ الحياة العقلية للمسلمين في القرن الثاني للهجرة، وهو «ضحى الاسلام» لأنه قد جلى هذه الحياة وأظهرها للناس كأوضح ما يمكن أن تكون، وكأجمل وأبهى ما يمكن أن تكون، ولست أدري أيهما أهنىء بهذا الفوز «أحمد أمين» لأنه قد جد وألح ومضى في الجد والالحاح، حتى انتهى الى هذا التوفيق، أم الجامعة المصرية لأنها قد اهتدت الى «أحمد أمين» ووكلت اليه ما وكلت من أنواع الدرس وفنون البحث، ولعل الخير كل الخير في أن أصرف هذه التهنئة عن «أحمد أمين» وعن الجامعة الى الذين يقرأون اللغة العربية، ويعنيهم أن يؤرخوا آدابها، ويستكشفوا ما اشتملت عليه من الكنوز التي كانت مجهولة الى الآن، هؤلاء أحق بالتهنئة لأنهم سيسيرون منذ اليوم الى أغراضهم فى طريق واضحة سهلة معبدة، يغمرها نور الضحى.

لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم، كما كانت من قبل، غامضة مضطربة، يتحدث عنها مؤرخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق، ويقولون فيها بالظن لا باليقين. ذلك عصر قد انقضى، وألقى بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب ستار صفيق. ألقاه «احمد أمين» وأصبح الذين يقصدون الى تاريخ الأدب قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا، ويسيروا فى بحثهم على بصيرة وهدى.

ما أكثر ما كنا نضيق صدراً بهذه الرموز الغامضة التي كان يلجأ اليها مؤرخو الآداب حين كانوا يذكرون تطور الحياة الاسلامية — أيام بني العباس — بفضل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم. وبفضل اتصال العقل العربي بالعقول الأجنبية، وبفضل الترجمة والمترجمين: والتأليف والمؤلفين. كانت هذه الألفاظ كلها رموزاً إلى الآن تدل على أشياء كثيرة، ولكنها لا تدل على شيء. تُصَوِّر أمام الباحثين صوراً مختلطة مضطربة لا تحصى ولا تستقر، فهي ذاهبة أبداً، جائية أبداً، غامضة ابداً. نسعى اليها، ولا نظفر بها. أو يصرفنا عنها الكسل العقلي؛ الذي هو آفة حياتنا الأدبية فى هذا العصر.

أما الآن فقد ضبطت هذه الصور أحسن ضبط، وجليت أحسن تجلية، وأصبحنا إذا ذكرنا تطور الأمة العربية أو الأمم الاسلامية فى القرن الثاني للهجرة نعرف بل نحس حقيقة هذا التطور ومصدره، والآماد التي انتهى اليها، وأصبحنا إذا ذكرنا الحياة الاجتماعية للمسلمين فى هذا العصر لا نقول كلاما مبهماً، وإنما نقول كلاماً يدل على ما يراد به أحسن دلالة وأجلاها: يدل على طبيعة هذه الحياة وما تقوم عليه من اتصال بين الأفراد والجماعات، على اختلاف الأجناس والبيئات والأمزجة، يدل على طبيعة الزواج الذي كان يكون بين هؤلاء الناس فيخلط دماءهم خلطاً، أو قل يمزجها مزجا. يدل على طبيعة الرق الذي محا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم، وصهرها كلها فى مرجل واحد هو الدولة الاسلامية، فكوّن منها شخصية جديدة كل الجدة. طريفة كل الطرافة، هي شخصية الأمة الاسلامية.

نعم، ويدل على هذه الطبقات التي كان يتألف منها الجسم الاجتماعي للأمة الاسلامية، والتي كانت تتقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة، التي يحتاج اليها هذا الجسم لا ليحيا فحسب، بل ليرفه هذه الحياة ويرقيها، ويأخذ فيها بأعظم حظ ممكن من الترف المادي والعقلي والشعوري جميعاً.

واذا ذكرنا الثقافة اليونانية، فلن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى المبهم الذي نرمز اليه بالفلسفة أحياناً، ولكنا سنعرف بالضبط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان، وكيف أخذوه. ومن أين أخذوه. وكيف أساغوه أولا، ثم تمثلوه بعد ذلك؟. وقل مثل هذا فى الثقافة الهندية والفارسية، أستغفر الله بل خيراً من هذا. قل أكثر جداً من هذا، فما أعلم أن باحثاً عن تاريخ الأدب العربي وفق إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند. أو بين العرب والفرس إلى مثل ماوفق اليه «احمد أمين».

وهو — بعد هذا كله — أول من بسط هذا فى اللغة العربية بسطاً يطمئن اليه الباحث الذي يسلك إلى بحثه طريق الجد والصدق، لا طريق العبث والتضليل.

واذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية، فلن نفهم منهما منذ اليوم ما كنا نفهمه من قبل، من أن اتصال المسلمين باليهود والنصارى قد أحدث بين أولئك وهؤلاء ضروباً من التأثير العقلي العام.

ولكننا سنعرف طبيعة هذا التأثير ومقداره ومصدره، ثم

سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة، فيما أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن.

أستطيع أن أقول إن «احمد امين» حينما انتدب لتأليف هذا الكتاب قد اتخذ لأمة المحارب، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليبلغنه، أو ليعدلن عن إظهار الكتاب. وهذا الغرض: هو تخليص الحياة العقلية الاسلامية فى القرن الثانى من الغموض والابهام، وما زال بهذا الغموض والابهام حتى أجلاهما عن موقفهما، وانتزع منهما حياة المسلمين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة. وكان يزورني كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من الغنائم التى كان يكسبها فى هذه الحرب الشاقة المتصلة، فأقاسمه سعادته بالظفر، واغتباطه بالفوز.

ولست أحب أن تقدر أنى أعمد فى هذا الكلام إلى ضروب المجاز وألوان التمثيل لأزين القول وأنمقه، ولكنى أحب أن تستيقن أنى إنما أقول الحق خالصاً من كل زينة، بريئاً من كل تنميق. فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً عنيفة طويلة مملة بين المؤلف وبين الغموض والابهام. وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التى ستراها فى فصول هذا الكتاب ويتأهب فى الوقت نفسه لهجمة أخرى يكسب بها موقعة أخرى، وينتصر بها انتصاراً جديداً.

ومع أن المؤلف قد أنفق جهداً قوياً فى أن يجنبك مشاركته فيما كان يحتمل من عناء، ويلقى من مشقة، ويذوق من مرارة الصبر والمصابرة، ومطاولة المسائل المعضلة التى كانت تعترض له. فأنت واجد أثر هذا كله فى فصول الكتاب. حين ترى المؤلف يسير فى أناة تشبه البطء، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة، تشبه أن تكون إغراقاً فى التفصيل، وتقليداً للجاحظ فى حب الاستطراد، ولكن اثبت لهذا البطء، واصبر لهذا التفصيل، وامض مع الكاتب فى رفق وأناة فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرفق أقوم جداً مما كنت تظن، وأنفس جداً مما كنت تنتظر، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً، وإنما قصد اليها قصداً، وتعمدها تعمداً: لأنه لم يكن يستطيع ان يعدل عنها حتى يضحى بالأمانة العلمية، والتحقيق الذى يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء.

ولا تخف من هذا البطء، ولا تشفق من هذه المطاولة، فلن يعترضك ملل، ولن يفل من حدك سأم، ولن تضيق بالكتاب لحظة. فقد عرف الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك، وكيف يـ[illegible] أمامك فى هذه الطريق من الزهر ما يستهوى عينك، وكيف ينشر حولك فى هذه الطريق من الأصداء الحلوة ما يخلب أذنك. وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول، وسترى أن الكاتب على ابطائه وأناته مسرع مسرف فى السرعة بعض الأحيان.

أشهد لقد وفق «أحمد أمين» فى هذا الكتاب الى الاجادة العلمية والفنية معاً: استكشف الحياة العقلية الاسلامية استكشافاً لم يُسْبَقْ اليه، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شيء عن جفاء العلم وجفوته، وأدنى شيء الى جمال الفن وعذوبته.

فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب، ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر حين ينتهى الى فوز لا تشوبه شائبة. ولتكن هذه الحياة الجادة الخصبة المنتجة ـ فى تواضع ولين جانب ـ التى يحياها «أحمد أمين» درساً نافعاً، ومثلا صالحاً للذين يريدون أن يحيوا فى مصر حياة العلماء.

طه حسين

المنهل الصافى

لأبى المحاسن بن تغرى بردى

للاستاذ عبد الله عنان

من آثارنا التاريخية النفيسة كتاب «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»، تأليف أبى المحاسن بن تغرى بردى المؤرخ المصرى الكبير المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو معجم ضخم للتراجم يقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية. وفيه يترجم المؤلف أعلام الاسلام منذ أوائل الدولة التركية ويبدأ بالمعز أيبك التركمانى زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ — ٥٥ هـ) أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى منتصف القرن الخامس عشر، ويفيض بوجه خاص فى سير أعلام مصر والشام من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء، ويترجم أيضا بعض ملوك النصرانية وأمرائها فى هذه العصور، مرتبا ذلك كله على حروف المعجم. وقد جعل أبو المحاسن مؤلفه تكملة أو ذيلا لمعجم الصفدى الشهير «الوافى». ولهذا الأثر

قيمة تاريخية خاصة، لأن مؤلفه وهو من أمراء البلاط القاهرى فى القرن التاسع الهجرى لم يتأثر فى وضعه بمؤثرات أو أهواء خاصة، ولا سيما فيما يتعلق بترجمة معاصريه، حسبما يشير إليه هو فى مقدمته، إذ يقول إنه وضع كتابه، غير مستدعى؟ إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان، ولا مطالب به من الأصدقاء والاخوان، ولا لتأليفه وترصيعه من أمير ولا سلطان». والمعنى الذى يقصده المؤلف بهذه الاشارة ظاهر: فقد كانت معظم التراجم فى عصره توضع بوحى معين أو تحقيقا لشهوات الخصومات السياسية والأدبية، التى جعلت من كتاب القرن التاسع ومؤرخيه أحزابا أدبية متنافرة متخاصمة. ولكن أبا المحاسن يقدم لقارئه سير معاصريه والقريبين من عصره فى صور أكثر استقلالا وحرية فى التقدير والحكم.

هذا الأثر المصرى النفيس ما زال مخطوطا لم ينشر، كمعظم آثارنا الأدبية. ولكن المستشرق المعروف الأستاذ (ڤييت) مدير دار الآثار العربية، أخرج لنا منذ عهد قريب بالفرنسية مجلدا ضخما عن محتويات «المنهل الصافى»، وسماه بنفس الاسم، ونشر ضمن مجموعة المجمع العلمى المصرى. وكان ضمن مجلدات ثلاثة من وضعه قدمها أخيرا إلى جلالة الملك. والواقع أن كتاب مسيو ڤييت هذا لا يمثل كتاب «المنهل الصافى»، لا فى كثير ولا قليل من محتوياته. فهو على رغم كونه يقع فى ٤٨٠ صفحة كبيرة، ليس أكثر من فهرس الكتاب الأصلى، يمهد له مسيو ڤييت بمقدمة صغيرة يصف فيها الكتاب ومحتوياته، ويحصى عدد التراجم التى يتضمنها (وعددها ٢٨٢٢ ترجمة) حسب صفات أصحابها من أمراء وقادة وساسة وتجار وأدباء وعلماء... الخ، ثم يكتفى فى كل ترجمة بذكر اسم صاحبها وتاريخ مولده ووفاته ورقم الورقة التى يشغلها من المخطوط الأصلى؛ ويذكر المراجع الأخرى التى تشير إلى هذه الترجمة. وأخصها كتاب النجوم الزاهرة لنفس المؤلف (أبى المحاسن) وخطط المقريزى، وابن حجر. والسخاوى..الخ. ثم يذيل ذلك بفهرس أبجدى عام.

وهذا مجهود له قيمته من الوجهة العلمية بلا ريب. ولكنا نلاحظ أن الفائدة التى تترتب عليه بالنسبة لكتاب المنهل الصافى ليست كبيرة. فهو كما قدمنا فهرس أو دليل فقط للبحث فى الكتاب الأصلى. والتراجم التى يتضمنها الكتاب الأصلى مرتبة على حروف المعجم، ولم يكن عسيرا على الباحثين أن يستخرجوها منه. وليس مما يقدم البحث كثيرا أن يرشدنا مسيو ڤييت الى أرقام المجلدات والصحائف، وأن يحيلنا فى التراجم الى مراجع يعرفها كل مشتغل بالتاريخ المصرى. وكان خيرا لو أن مسيو ڤييت بذل هذا المجهود فى نشر الكتاب نفسه أو جزء منه، لأن هذا الفهرس الضخم يقع فى نحو الخمسمائة صفحة، أعنى نحو نصف المخطوط الأصلى، وقد أنفق فى إخراجه ما يكفى لاخراج مجلد ضخم على الأقل من المخطوط الأصلى. على أننا نرجو أن تتقدم لنشر هذا الأثر المصرى النفيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، إلى جانب كتاب «السلوك فى دول الملوك» الذى تشتغل الآن بطبعه فتسدى بذلك إلى التاريخ المصرى والى البحث فيه خدمة جليلة.

لاتينيون وسكسونيون

(بقية المنشور على صفحة ٤٢)

فجلس مجلس القاضى وأصدر بين الثقافتين حكم الواثق المطمئن فى أسطر ما أحسبها تتجاوز العشرة، ووجد طريقاً الى أن يقارن فى هذه الاسطر القليلة بين الانجليز والفرنسيين وبين أناطول فرانس وبرناردشو وان يقول ان الفرنسيين قادوا العالم فى القرن الثامن عشر وان الانجليز يقودون العالم الآن. أظن أن الاستاذ سلامة موسى يوافقنى على أن هذه المسألة أعسر وأعظم خطراً من أن يقضى فيها بجرة قلم وبهذا الايجاز الذى لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه يدعو الى الابتسام.

وأما الكاتب الآخر فهو الاستاذ محمد على غريب، فقد كتب الأستاذ فى البلاغ فصلا أشهد أنه أضحكنى وأضحكنى ضحكا فيه اعجاب كثير. فهو يسخر من العقاد ومنى لانا نتناقش فى مسألة كهذه لا تصلح موضوعا للمناقشة ولا تنتهى المناقشة فيها الى نتيجة عملية. وله كل الحق فى أن ينكر هذه المناقشة لولا أنه يخطىء حين يطلب الى كل بحث أو مناقشة أن تكون له نتيجة عملية. قد تكون المناقشة خيراً فى نفسها وقد يكون من القصور أو التقصير ألا يكتب الناس الا ليحققوا غرضاً عملياً. وقد يكون احقاق الحق فى نفسه أهم غرض ينبغى أن يكتب من أجله الكتاب. وقد يكون الأستاذ مخطئاً أيضاً حين يزعم أن ليس فى مصر نقد أدبى مصرى ويكفى أنه هو ينقد الاستاذ العقاد وينقدنى. وقد يكون الاستاذ مخطئاً أيضا حين يزعم أننا نجادل فى الادب الاجنبى ولا ننتج شيئاً. فأنا أظن أن الاستاذ العقاد قد أنتج شعراً ونثراً وأظن أنى لم أنفق حياتى عبثاً. وأنا أحب أن ينقدنا الناقدون بل أنا شديد الحرص على هذا النقد وقد أفتن به أحيانا، ولكنى أحب أيضا أن يتلقى هؤلاء الناقدون نصحنا لهم لقاء حسنا، لعل أحسن ما تنصح به لهم ألا يسرفوا على أنفسهم ولا على الناس.